التاريخ: شهر حزيران من عام ١٩٨٢

المكان: العاصمة العراقية بغـــداد

obeikan.com

obeikan.com

عندما كانت الحرب العراقية الإيرانية بعامها الثاني (١٩٨٢)؛ وفي العاشر من الشهر السادس لذلك العام كنت قد توجهت من بغداد – مكان إقامتي حينها – قاصدًا محافظة السليمانية بكوردستان العراق، عازمًا على أن لا أرجع منها مهما كان الثمن، وكنت آنذاك في الخدمة العسكرية وبرتبة نائب ضابط، وأعمل في قاعدة الوليد الجوية على الحدود الأردنية العراقية بالقرب من قضاء الرطبة التابع لمحافظة الأنبار.

لقد كان قراري بعدم رجوعي لبيتي أو لعملي بوحدتي العسكرية قد تبلور، نتيجة جملة من الأفكار المصحوبة ببعض المشاعر التي لم تكن تخلوا من الهواجس التي اختلطت ببعضها، الأمر الذي جعلني غير قادر على الرؤية إلا من زاوية واحدة، اعتقدت أنها هي التي ستكون الخلاص والطريق إلى الحرية التي أنشدها، وخلاصة ما كنت أشعر به هو أنني لم أعد منتميًا للمجتمع الذي ولدت ونشأت وترعرعت به، بسبب الصدمة التي تلقيتها نتيجة الضغوط الشديدة التي مورست ضدي من قبل البعض من أعضاء حزب البعث، بكل الوحدات العسكرية التي عملت بها على مدى الثلاثة عشر عامًا من خدمتي العسكرية بتلك الفترة، بسبب رفضي القبول بالانتماء لحزبهم، وإصراري على أن أبقى مستقلاً، حتى وصل بهم الأمر بتلك السنة، وكنا في العام الثاني لقيام الحرب العراقية الإيرانية، أن ينكروا عليَّ وطنيتي كعراقي، وأخبروني بكل صراحة وقحة أنني إن لم أنتمِي لحزبهم؛ فذلك يعني لديهم أنني ضدهم، وهذا يعني أنهم وضعوني بخانة الخونة لأنهم كانوا دائمي الترديد أن أعدائهم الأكثر إيذاءً للعراق هم الخونة من العراقيين.

وبذلك وجدت نفسي قد تمَّ تصنيفي من الخونة لأنني كوردي أولاً، وغير بعثي ثانيًا، من غير أن تشفع لي عندهم تلك السنوات الطويلة من خدمتي الملتزمة

بصفوف القوة الجوية، فغضبت غضبًا شديدًا وقلت لنفسي حسنًا مادام رفاق البعث قد صنفوني بذلك التصنيف البائس، فقط لأني لم أكن على شاكلتهم، وبذلك فقد كان تصرفهم إياه هو من دفع بي لأكون كورديًا بحق وحقيقة وليس بالاسم فقط، وعليه فأهلي الكورد كانوا أولى بخدماتي كعسكري، لأني كنت على اطلاع تام بالممارسات الشنيعة التي تُمارس ضدهم، من تلك المشاهد التي كنت أراها خلال زياراتي المتكررة لأبناء عمومتي في محافظة السليمانية، الأمر الذي جعلني أشعر أن الواجب أصبح يحتم علي ألا أقف مكتوف الأيدي متفرجًا على ما كان يحدث من ظلم واستبداد، لأنني كنت مقيدًا بحياة لم يتسنَ لي أن أختارها.

بذلك فإن هذين السببين قد فتحا عيني وبصيرتي لأستعرض أمورًا أخرى كانت تدور في بالي بين الحين والآخر، منها محاولاتي الكثيرة من أجل استرجاع هويتي القومية المفقودة، بغاية الرجوع لجذوري الكوردية، بعد أن جعلني والدي عن غير قصد أحد الروافد الضائعة لذلك الأصل المشرف لشجرة العائلة، ولكن وللأسف فشلت كل محاولاتي المتعددة، وكان أولها وأهمها هو السعي لتعلم اللغة الكوردية التي لم يعلمني إياها والدي بصغري، باعتبارها من أهم مقومات القومية، والسبب بذلك يرجع لأني عشت حياتي منذ ولادتي بعالم آخر لم أختره بمحض إرادتي.

ولدى دراستي لأصل كل تلك الأسباب التي قادتني لهذه المتاهة؛ وجدت أن تاريخ العائلة العريق كان يمشي منتظمًا منذ أن جاء جدي الثالث محمد أغا بن علي أغا، وكان ضابطًا برتبة رفيعة في الجيش العثماني، وترجع أصوله لقبيلة هكاري بكوردستان تركيا، لينزل بحكم وظيفته بمدينة كركوك ثم يستقر بمدينة السليمانية التي أيامها كانت قد تأسست حديثًا ببدايات القرن الثامن عشر،

والمدينتان كانتا تابعتين لولاية الموصل، وحتى زواج والدي المولود في السليمانية من والدتي التي هي من مجتمع بغداد، وفكرت حينها بأنني إذا ما عملت عكس ما عمل والدي فإن الرافد الضائع سيرجع لأهله وأصوله إلى كوردستان، وعندها ستستقيم الأمور لمن سيأتي بعدي من بنين وبنات.

ولكن الفشل كان يلاحقني دائمًا، عندما أغلقت كافة الأبواب بوجهي لمشروعي بالهجرة المعاكسة على الرغم من أنني لم أطلب المستحيل، حتى وجدت نفسي كنبتة زُرعت في أرض غير أرضها ومرَّ عليها زمن، أصبحت جذورها ممتدة إلى العمق الذي لم يعد بالإمكان اقتلاعها وزرعها من جديد في أرض الآباء والأجداد.

وعليه واستنادًا لكل ما تقدم من أمور؛ هي من وجهة نظري ليست لها أية قيمة لو كنا نعيش بمجتمع المواطنة، بظل دولة ترعى مواطنيها من غير تمايز بقومياتهم أو أديانهم، بدلاً من أن نعيش بمجتمع عشائري ثقافته أقرب ما تكون للبداوة من المدنية، ولذلك وجدت بابًا واحدًا كان مفتوحًا أمامي من خلال تحطيم جميع قيودي، وذلك بقلع كل الجذور العميقة مرة واحدة، لإيماني بأن السعادة تكمن بالنضال، والخنوع ما يأتي بالتعاسة، علمًا أن ذلك الأمر لم يكن بالصعب أو العسير لو أنني لم أكن مرتبطًا بعمل مع الدولة، كعملي العسكري الذي كان الدخول به طوعي والخروج منه يعتبر جناية لا تُغتفر بعد أن جعلوه أبدي كالعبودية.

وعلى أساس ذلك الحال كان قراري أنني لن أرجع مهما كلفني الأمر، حتى لو أدَّى بي أن أخسر حياتي دونه، وبما أن البقاء للعيش بداخل مدينة السليمانية كان أمرًا مستحيلاً لأنني حينها سأكون مطاردًا من قِبل السلطة، نتيجة تخلفي عن وظيفتي العسكرية؛ لذلك كان علي أن أتدبر حالي لأعيش بالقرى الكائنة بمحيط مدينة السليمانية، تلك التي لا تتواجد بها سلطة للدولة.

أخذت أتفكر بالأمر، وكنت حتى تلك اللحظة من التفكر لازلت في الحافلة المتجهة لمدينة السليمانية، وعليه فإنني قررت أنه إذا لم يأخذ أحدًا من أقاربي بيدي لتصحيح ما أفسده الدهر؛ فإن جبال وسهول ووديان كوردستان سوف لن تبخل علي بإيوائي واحتضاني كابن ضال عاد ليرتمي بأحضان أمه الحنون، حيث أجواء الحرية التي ستُسقط كل الحواجز التي كانت تحول بيني وبين الآخرين من أبناء جلدتي، من أجل مد يد العون لهم ورسم الابتسامة على شفاه المضطهدين من أبناء ذلك الشعب الذي ظلمته الأقدار.

هكذا كانت الفكرة ولكن كيف السبيل إلى طريق الحرية من أجل تنفيذها؟ هذا هو السؤال الذي توسمت أن أجد الإجابة الشافية له عند وصولي إلى مدينة السليمانية، من خلال مفاتحة جميع أقاربي طلبًا للعون بمسعاي هذا، مع إصراري بعدم العودة إلى ما كنت عليه، حتى لو انتهى هذا الأمر بكارثة أنهي بها تلك الحياة الشقية، من خلال التوجه صوب الجبال وحدي من غير أية تدابير تتخذ بمثل حالتي التي كنت عليها.

ومن أجل أن أعرف بمن سأبدأ من الأقارب الذين قد تكون لديهم القدرة والإمكانية على مساعدتي بهذا الموضوع؛ أخذت أستعرض أوضاع كل واحد منهم، فوجدت أن أبناء عمتي الأربعة هم مسالمون بطبعهم، ومن المثقفين العاملين بسلك التعليم، ولم يسبق لأحدهم أو أيًا كان من معارفهم أن سلك هذا الدرب الشائك بمقارعة الدولة، من خلال الانتماء لحزب سياسي كوردي معارض، أو الانضمام لقوات الأحزاب الكوردية كپيشمرگة[1].

(١) الپيشمرگة: تطلق على كل مقاتل كوردي فهي تعني الفدائي أو الشخص الذي يتسابق مع الموت أو الذي يحمل روحه على أكفه؛ بالترجمة الحرفية للغة العربية.

ثم تنبهت أن أحد أولاد عم والدي كان له ابن قد فرَّ من الخدمة العسكرية الإلزامية، وأمن له السكن بإحدى القرى القريبة التي كانت بقبضة الأحزاب الكوردية المسلحة، وعلى هذا الأساس طرقت باب ابن عم والدي أول وصولي لمدينة السليمانية، وهو رجل ختيار محترم جدًا، ومن الشخصيات المعروفة في السليمانية، إضافة إلى كونه أيضًا صاحب حسٍّ قومي مرهف، ويحمل ضمير حي، وهو من أعز وأقرب الأشخاص لوالدي من أولاد عمه الأربعة، وهم أولاد عارف أفندي الشقيق الأصغر لجدي الحاج علي أفندي، وقد جمعتهما ذكريات حميمة منذ الصغر عندما كانا يعيشان سويًا في بيت جدهما الحاج حسن أفندي، الكائن موقعه الآن بجوار مبنى السراي القديم بمحلة ملكندي في السليمانية، وكانت فترة صباهما مزدحمة بالذكريات التي كانا يستذكرانها كلما التقى الاثنان أثناء زيارة والدي له بين الحين والآخر ببيته بمحلة عقاري في السليمانية، وكانت بداية تلك الذكريات هي بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى حينما كانوا صبيان بعمر العشرة سنين.

استنادًا لكل ما تقدم توجهت لبيت ابن عم والدي كاك[١] نجم الدين عارف رحمه الله وأرضاه، وكان رجلاً حسن الملتقى يرحب بضيوفه، وكانت لي عنده معزة خاصة هي من معزته لوالدي رحمه الله، فأخبرته عن عزمي للالتحاق بالثورة الكوردية للأسباب التي ذكرتها سلفًا، وعندها أصيب الرجل بالدهشة وتصور أنها قد تكون كلامًا عابرًا، أو أمنية كالتي يرددها الكثير من الناس في السليمانية كل يوم، عندما يتعرض أحدهم لبعض مصاعب الحياة نتيجة الضغوط النفسية، جراء التصرفات العنجهية للسلطة ضدهم بمناسبة أو بدون مناسبة،

(١) كاك أو كاكا : هي تسمية كوردية تُطلق على الرجل الوقور والمحترم والمرادف لهذه التسمية باللغة العربية هي "السيد"، وبالإنكليزية "مستر".

ولكني أكدت له أنني عازم على هذا الموضوع ولا مجال لي بالتراجع عن قراري هذا، وعندما تأكد الرجل من إصراري على ما عقدت العزم عليه، أخذ يحذرني بكل صدق وأخبرني بالصعوبات الكامنة بهذا الطريق، حيث الحياة القاسية التي لا يتحملها إلا من خبر المصاعب وركب المخاطر، حيث قساوة الجو، والطقس البارد شتاءًا وقلة الزاد، إضافة للموت الذي يتهدد حياة الجميع بكل لحظة هناك...

وللأمانة فقد صدق عمي كاك نجم الدين رحمه الله بكل ما حذرني منه بخصوص الحياة في البرية ولكنه لم يحذرني من الغدر الموجود بين الثوار، لأنه لم يكن على علم بهذا الموضوع كما علمته وخبرته أنا بوقت لاحق بعد مساعدته الكريمة لي، وبعد استماعي لكل ما قاله لي عمي العزيز أجبته بكل ثقة أنني ذاهب كي لا أرجع، لأن أمنيتي هي أن أروي بدمي أرض كوردستان، وبما يخص المتاعب المترتبة لتلك الحياة القاسية فإنني سأعمل بكل جهدي لإذلالها بالعزيمة وبالإرادة والتصميم، مذكرًا إياه أن السلطة الحاكمة عندما تنوي الاعتداء على أية منطقة من كوردستان فإنها تجند مقاتليها بالإكراه، ونحن ببغداد نعرف أن من يتم إرسالهم للقتال بكوردستان هم من بسطاء الناس الذين ليست لديهم الإمكانية بالتوسط بعدم الذهاب وهم من المغلوبين على أمرهم، وبالرغم من كل هذا فإنهم يتحملون كل الظروف الصعبة التي ذكرها جنابكم الكريم، فما يضيرني أنا إذا ما كنت مدافعًا ولست معتديًا، ولي من الخبرة العسكرية الطويلة التي تؤهلني لهذا العمل.

هنا تبسم عمي العزيز وأخذ يسرد لي كيف أنه شهد نفس موقفي هذا قبل أربعين عامًا، عندما التحق والدي بالثورة الكوردية إبان حركة مايس بعام ١٩٤١، وترك الجيش العراقي الذي كان أحد منتسبيه، وحكى لي رحمه الله

كيف أن إصراري هذا يذكره بعمه الحاج علي الذي هو جدي وهو من أشد المعجبين به باعتباره كان فارسًا مميزًا ومقاتلاً عنيدًا في زمنه.

وهكذا وبعد الإصرار من قبلي، والتعاطف والتفهم الذي لقيته من عمي العزيز رحمه الله وباقي أفراد أسرته الكريمة؛ وافق الرجل أن يسعى من أجل تأمين الوسيلة الأكثر أمانًا لخروجي من مدينة السليمانية، إلى ما كان يسمى بتلك الفترة بالمناطق المحررة من كوردستان، وهي التي تقع خلف الجبال التي تحيط بمدينة السليمانية، حيث توجد العديد من القرى التي لا تخضع لسلطة الدولة، وهي تحت سيطرة الأحزاب الكوردية المسلحة، ومنها قرية تدعى "گورگه يير" (حرف الكاف يلفظ كالجيم المصرية) التي يسكن فيها ولده الذي تخلف عن الخدمة العسكرية، وكان شابًا بنفس عمري وكنت على علاقة طيبة سابقة به عندما كان في السليمانية، على الرغم من تحفظي على سلوكه المتلون في التعامل مع الآخرين، وهو أسلوب تفرد به بعكس كل إخوته وأبناء عمومته، وهو حتمًا لا يُشبه والده بأي صفة من تلك الصفات الطيبة التي كان عليها رحمه الله.

وبعد أن أصبحت رغبتي تأخذ شكلها الجدي بالتنفيذ؛ كانت أولى الخطوات التي اعتمدها عمي العزيز هي مفاتحة أحد معارفهم من الذين لديهم علاقة مصاهرة مع ابنه، وهم من الذين لديهم اطلاع ونفوذ مع الكثير من الكورد الذين كانوا يعملوا بالسياسة والعمل السري، وعندها تمَّ الاتفاق على موعد تمَّ فيه تحضير سيارة لاندروفر أجرة تنقلني ضمن أجواء عائلية، كان فيها الركاب هم خليط من الأقارب وبعض النساء اللواتي كُنَّ بين الحين والآخر يذهبنَّ لزيارة الابن أو الأخ أو الزوج الهارب من سطوة السلطة الحاكمة إلى المناطق المحررة باعتبارها ملاذًا آمنًا لهم، وهو أمر كان قد سبق وأن قاموا به، ولكن هذه المرة

الأمر مختلف لأنهم سيهربونني معهم، فعلى الرغم من أن أوراقي الثبوتية من هوية عسكرية ونموذج إجازة دورية نافذة المفعول كانت سليمة، ولكن إذا ما استوقفتنا بالصدفة أية مفرزة أو سيطرة تفتيش ونحن في طريقنا إلى المناطق المحررة فسيكون موقفي صعب جدًا، لأن الموضوع سيكون واضحًا ولا يحتاج لأي تفسير، وهو نيتي بالهروب من الخدمة العسكرية واللجوء لتلك القرى لسبب أو لآخر.

قبل البدء بتلك الرحلة كنت قد أودعت مبلغ خمسة آلاف دينار عراقي لدى عمتي الحاجة "شفيقة الحاج علي" رحمها الله؛ لاحتمال حاجتي لها في المستقبل الذي كنت أجهل كيف سيكون، وأبقيت على مبلغ أربعمائة دينار عراقي بجيبي، علمًا أن سعر صرف الدينار قياسًا بالدولار بتلك الفترة هي ثلاث دولارات لكل دينار. وبعد مسيرة حوالي الساعة بين الوديان والمنحدرات وبعض القرى التي هي بأطراف مدينة السليمانية؛ مررنا بنقطة عسكرية فيها بعض الجنود البسطاء، ونزل السائق ليعطيهم قالبًا من الثلج، بعدها مضينا بطريقنا على مدار ساعة أخرى، وأخبرني السائق حينها أننا قد أصبحنا بداخل المنطقة المحررة، فتنفست الصعداء واعتبرت تلك اللحظة هي بداية لولادة جديدة لإنسان طالما عشق الحرية وتطلع إليها.

مضت بنا السيارة أكثر لتتوغل داخل تلك المنطقة الجميلة بمناظرها الخلابة، كنت أتطلع لما حولي من مشاهد لتلك القرى التي نمر بها، وكانت تلك المرة هي الأولى لي بكل حياتي السابقة وأنا أشاهد فيها قرى كوردية، حتى وصلنا أخيرًا إلى قرية "گورگه ییر"، التي ستكون لاحقًا نقطة انطلاقي إلى عوالم أخرى وأهوال شتى، شاب فيها شعر رأسي على مدى عام واحد، وسآتي على ذكر أحداثها تباعًا وبالتفصيل.

وصلت إلى حيث كنت أصبوا وأحب، إلى أجواء الحرية التي حُرمت منها منذ أن وعيت ما هو الحق وما هو الباطل.. وبذلك انتهى المشوار الذي طالما أرقني بكيفية تنفيذه؛ الوصول إلى ما اعتقدته حينها جنة الله على الأرض، مع العلم أن تلك الطريق كانت سالكة وميسورة لأي فرد من أهالي السليمانية من غير المطاردين أو المطلوبين من قبل السلطة، ولكنها كانت مستحيلة علي لكوني كنت غريبًا عن تلك المنطقة، ولضعف حالي باللغة الكوردية التي لم أكن أفهمها أو أحسن الكلام بها حينها كما أنا الآن.

عند وصولنا إلى قرية "گورگه ییر" استقبلنا قريبي بفتور ودهشة، مستفسرًا عن سبب قدومي، فأخبرته بالسبب، وعندها أخذ يصف لي كل من حوله بكلمات نابية لم أعهدها به من قبل، من أجل أن يجعلني أعدل عن المضي بما نويت عليه والرجوع من حيث أتيت، وكلما كان يأتي على ذكر الرجوع أضحك ساخرًا ومعلقًا بأنني لم يعد لي مكان أرجع إليه، لأنني أنتمي لهذه البقعة الطاهرة من الأرض، وأن جُلَّ ما أرتضيه لنفسي هو أن أستطيع خدمة هؤلاء الناس البسطاء من أهلي، فالبارحة كان لي أقارب معدودين أتشرف بهم، واليوم أصبح كل هؤلاء هم أهلي وأقاربي..

وفي مناسبة حديث آخر بنفس الموضوع قلت له جازمًا إنني قد جئت لهدف لم يتحقق حتى الآن، وهو الانخراط بالثورة الكوردية، وهدفي هذا لن أتخلى عنه إلا بقتلي، وعندما سألته عن سبب تثاقله مني أجاب أن الموضوع هو تقاطع مسارات، لأن طريقك ليس نفس طريقي، فأنا مقيم هنا بصورة مؤقتة، وعلاقتي بجميع الأحزاب كل على حدة جيدة، حتى يأتي اليوم الذي ستتغير فيه الأوضاع وأرجع لبيتي من غير أن يغضب عليَّ أحدٌ منهم... لقد كان كلامه بمنتهى الأنانية والانتهازية، لأن ذلك يعني أن انتمائي مستقبلاً لأي حزب سوف يغضب

– باعتقاده الساذج – بقية الأحزاب عليه، وبذلك أدركت أن مشروع التحاقي بالثورة لن يكون ممكناً إلا إذا عاد قريبي هذا إلى السليمانية أو أفترق عنه، فاقترحت عليه أن أذهب للإقامة بجامع القرية حيث استراحة المقاتلين من كل الأحزاب، وبنفس الوقت هو مأوى لكل من ليس له أحد بتلك المنطقة، فاعترض على ذلك؛ ليس من أجل خشيته على حياتي، وإنما ادعى أن هذا التصرف سيجعل والده – ذلك الرجل الطيب – غاضبًا عليه باعتباره قد تخلى عني...

والحقيقة هي إنه كان يخشى إن فعلت ذلك فإنني بالتأكيد سيتسنى لي الاختلاط بالكثير من الناس، وبالتالي سأخرج عن ما خططه لي، وذلك ما سيظهر بشكل واضح بمرحلة لاحقة، وهكذا وجدت نفسي مكبلاً من جديد بقيود يتوجب علي الالتزام بها ردًا للجميل الذي طوق به عنقي والده، العم كاك نجم الدين رحمه الله، مع يقيني أن تلك القيود سرعان ما ستزول وحدها، لأن هذا القريب لن يصمد بالبقاء حتى قدوم فصل الشتاء، وأن الدولة سرعان ما ستصدر عفوًا عن الهاربين من الخدمة العسكرية عاجلاً أو أجلاً، وهو أمر تكرر خلال تلك الفترة من الحرب مع إيران، وهذا ما يتمناه وينتظره ذلك القريب، وحتى يحين ذلك الوقت فهي فرصة لي ومتسع من الوقت يتوجب علي استثمارها لتعلم اللغة الكوردية، ودراسة الواقع السياسي لتلك الأحزاب المنتشرة حينها على الساحة، لكي أتعرف على من هو الأجدر منهم بالانتساب به والالتحاق بمجاميعه المسلحة، وذلك من خلال متابعة ما يقدمه للناس من طيبة وإحسان، وليس من خلال شعاراته المعلنة التي عادة ما تكون زائفة.

هكذا عشنا وتعايشنا سويًا حتى أجل آخر ليذهب كل منا بطريقه الذي سيختاره بنفسه.. وهنا لابد لي أن أصف قرية "گورگه ییر"، تلك القرية الوديعة بأهلها الطيبين، وهي أجمل وأحلى ما وقعت عليه عيناي من القرى بتلك المنطقة،

فهي تقع وسط وادي تحيط به التلال من كل جوانبه، وهذه ميزة لأغلب قرى كوردستان، حيث أن وفرة الماء العذب تكون دائمًا بأسفل التلال، ناهيكم عن أن جدولاً من الماء العذب يخترق وسط القرية ويقسمها لشطرين، سكانها جدًا طيبون، ولا يتعدى عدد العوائل بها ٢٠ عائلة، فيهم من هو ميسور الحال وفيهم من هو فقير يعيش على قوت يومه...

يسكن في القرية أيضًا جموع من الشباب الهاربين من الخدمة العسكرية، الذين التجئوا إليها، ويعيشون ببيوت صيفية مؤقتة تدعى بالكپر (والباء هنا تلفظ كما نلفظ حرف p الإنكليزي)، وهي منتشرة بكافة أنحاء القرية، ومجاورة لبيوت سكانها الذين عادة ما يقدموا الرعاية لهم، وبيوتهم هذه عادة ما تشيد من جذوع الأشجار في هيكلها، ومن الأغصان في محيطها وسقفها، ويتم تمويل وإعانة ساكنيها من قبل أهاليهم، الذين عادة ما يقومون بزيارات دورية أسبوعية لهم، وهناك جامع كبير في أعلى القرية، ومقهى صيفي في أسفلها، أقامه بعض الشباب الفارين من التجنيد لبيع الشاي والكولا والمشويات، وهو مكان لتجمع الشباب من غير أهل القرية، وبنفس الوقت هو استراحة لبعض المقاتلين من پيشمرگة جميع الأحزاب الكوردية.

لقد كانت تلك المقهى الصيفي هي أولى الأماكن التي تسنى لي أن أجري فيها حورًا ومناقشة حول وجهات نظر الشباب، الذين وجدتهم ببداية الأمر يتحدثون عن أماكن سكناهم بداخل مدينة السليمانية عندما يتفاخر أحدهم بأنه من المحلة الفلانية التي يسكنها الأغنياء، معيبًا على الآخرين الذين يسكنوا بالأحياء الفقيرة، ثم يجيبه الآخرون بفخرهم بمحلتهم التي تحمل صفات أخرى ليست موجود بتلك المحلة الغنية وهكذا... وكان من محاسن الصدف أن جميعهم يعرف اللغة العربية، وسألني أحدهم ممازحًا وهو يعرف أنني من سكان

العاصمة بغداد: من أية منطقة أنت في السليمانية؟؟ في إشارة واضحة لكوني غريب عنهم.. فأجبته بفخر بأنني كورديًا منتميًا لأمة أسمها كوردستان التي هي ليست على الخرائط، ولكني على يقين أنها سترسم حتمًا على الخرائط بزمن قادم بسواعد أبنائها.. فلم يعلقوا على قولي الذي لم يكن يعني شيئًا لهم لتفاهتهم، ورجعوا ليكملوا نفس حوارهم الطفولي اليومي المشحون الذي ليس لهم غيره، واعتادوا على ترديده كل يوم، وهو أن يبدأ أحدهم بتأييده لحزب بعينه ثم الآخر يؤيد حزبًا مغايرًا، والآخر، والآخر... وهكذا من المسميات المتداولة للأحزاب آنذاك.

ثم سألوني مرة أخرى إن كنت قد كونت فكرة عن الأحزاب الكوردية وما هي أهداف كل منها وإلى أية جهة أنا منحاز بتأييدي؟ فكان جوابي أنني سأنتمي إلى الجهة التي هي أكثر خدمة وتفانيًا وإخلاصًا للقضية الكوردية، وهذا ما سأتعرف عليه بقادم الأيام، من خلال مشاهداتي لواقع حال كل حزب منهم، فتعجبوا لمقولة أنني سأنتمي؟ لأنها غير موجودة بقاموس مفردات حواراتهم، وكان شغلهم الشاغل هو الثرثرة فقط لا أكثر، وتعجبت أنا أيضًا لِمَا كانوا يقولون، لأنه لو كان كل شباب الكورد على هذا النحو فعلى كوردستان وحقها الضائع السلام، وفي سؤال آخر وُجه لي عن أصولي ومن أية عائلة أنحدر؟ فأجبتهم بما أعرفه عن العائلة التي انحدر والدي منها، وهي من العوائل المعروفة في السليمانية لأصالتها، وأخذت أسرد لهم الأحداث والوقائع التي مرَّت على كوردستان في التاريخ الحديث، والدور المشرف لأجدادي فيها بالاسم والعنوان، لأنني كنت مُلِّمًا بتاريخ العائلة من خلال الروايات الموروثة التي كان والدي قد عاش قسم منها، والقسم الآخر سمعه من جدي الحاج علي، الذي كان من أعيان السليمانية... وعندما شعرت أن كلامي لا يلقى الاستحسان بالإصغاء لذلك التاريخ العريق الذي لا يتناغم وأهواءهم؛ توقفت وانصرفت عنهم، ولم

أعد الكرة بالحوار معهم بأي شأن بمناسبات قادمة، لأنه بالتأكيد سيكون حوارًا عقيمًا وفاشلاً بامتياز عالٍ، وهو أمر لم يضعف من عزيمتي، لعلمي وإدراكي بمسيرة الشعوب التي بين أبنائها من هو المناضل والمتقاعس والانتهازي والخائن والأبطال، وعلى رأسهم الشهداء الذين يضحوا بدمائهم في سبيل كلمة الحق والمبادئ التي يؤمنوا بها، مع يقيني أن كفة من هم سائرون بكل مكان على طريق الحق هي الأرجح بأخر المطاف.

وهنا بودي أن أؤكد نقطة مهمة؛ هي أن ما ورد من وصف وتعبير عن مشاعر لي هي تخص تلك الفترة، وعليه فإن ما سيرد من مشاعر مغايرة لها بفترة قادمة من هذه الرحلة هو أمر اعتيادي ولا يُعتبر متناقض، لأن الإنسان يتعلم من خلال ما يكتشفه ولن يظل على نفس الحال، خصوصًا وأنني كنت بتلك الفترة أكتشف بكل يوم جديد شيئًا لم أكن أعرفه من قبل... وعليه فإن ما سمعته بذلك الحوار السقيم مع تلك الثلة من الشباب الضائع جعلني أقع بين نقيضين، فالذي رأيته ولمسته منهم لا يشبه الوصف الذي سمعته من والدي رحمه الله على مدى العمر كله من سيرة طيبة ووصف رائع للشعب الكوردي، حتى خيل لي أن بسالة أبنائه وبطولاتهم جعلت منهم هامات عالية كادت أن تناطح السحاب بعنفوانها وكبريائها وثبات موقفها في أصعب المواقف..

هذا هو وصف الإنسان الكوردي الذي ترسخ بداخل ضميري، وما رأيته وسمعته من ترهات الكلام جعلني في حيرة من أمري، وقد أصابني الذهول أثناء سماعي لأحدهم وهو يذكر بكل فخر حكاية أخيه الذي هو أحد منتسبي الجيش الشعبي، وهي ميليشيا مسلحة لحزب البعث الحاكم أثناء النهار، وهو أيضًا – أي نفس الشخص – ينتقل أثناء الليل ليكون أحد پيشمرگة الأحزاب الكوردية العاملة بالضد من حزب البعث وأعضائه ومليشياته بالجيش الشعبي!

وأنا الذي كنت أعتقد أن الكوردي لا يعرف مثل تلك الممارسات الانتهازية ليكون متلونًا كالحرباء، فهو بضميري إما أن يكون خائنًا بشكل علني، وهم القلة من سفهاء القوم، أو يكون مناضلاً، وبذلك يكون الابن البار لهذا الشعب الذي لم يمت على الرغم من كل المحاولات المتكررة لإبادته عبر التاريخ، لأنه شعب كان يتجدد بسواعد أبنائه البررة.

من ناحية أخرى كانت مشاهداتي لقوات البيشمركة من كل الأحزاب محدودة جدًا، عندما كانوا يتوافدون على قريتنا كمجاميع وليس كأفراد، ضمن جولتهم اليومية المعتادة، ولم يكن لي النصيب أن أتعرف عن كثب على أيٍّ منهم، ففي الصباح مثلاً كانت تنزل إلى القرية مجموعة من بيشمركة الاتحاد الوطني الكوردستاني المسمى بـــ"اليكيتي"، وظهرًا بيشمركة الحزب الديمقراطي الكوردستاني المسمى بـــ"البارتي"، ومساءً بيشمركة الحزب الشيوعي العراقي الذي كان يضم بين صفوفه مقاتلين من القومية العربية، وفي اليوم التالي أو بنفس اليوم كان بالإمكان أن تنزل على قريتنا مجاميع من بيشمركة الأحزاب الصغيرة الأخرى مثل الحزب الاشتراكي الكوردي المسمى بالحسك، أو الحزب الإسلامي الكوردي، وكانوا جميعهم بعد أن يقضوا وقتًا قصيرًا للراحة في جامع القرية يتوزعون على بيوت القرية بحسب إمكانية استقبال كل بيت لهم، ومن يقرر ذلك هو مختار القرية أو من ينوب عنه أثناء توزيعهم، ومثال ذلك أن هذا البيت لديه الإمكانية على استضافة شخصين من البيشمركة والآخر ثلاثة وهكذا...

وكان الأهالي يقدمون كل ما تيسر لديهم لكل أفراد بيشمركة الأحزاب من الزاد على مدى ثلاثة أوقات يوميًا، ثم يزودوا المجموعة الثالثة منهم بعد وجبة العشاء التي عادة ما تكون بوقت الغروب؛ ببعض الأغطية التي يحتاجونها أثناء

النوم في جامع القرية، أو بإحدى المرتفعات المطلة على القرية عندما يكون الوقت صيفًا، ليعيدوها في الصباح لنفس البيت، مباشرة بعد صلاة الفجر، ليجدوا طعام الإفطار بانتظارهم.

لقد كانت معاناة أولئك القرويين المساكين الذين لم يشكوا من كل هذا؛ هي أكبر لدى سكان القرى التي كانت على خط التماس ما بين نفوذ قوات البيشمركة أثناء الليل، ونفوذ الدولة وقواتها العسكرية المدعومة بقوات كوردية عميلة لها، تدعى بالفرسان، ويسميها الكورد بالجحوش أو الجاش أثناء النهار، وهذا يعني أن أولئك الناس البسطاء المغلوبين على أمرهم سيكونون متهمين من قِبل الدولة بسبب إمداد البيشمركة أثناء الليل بالمأكل والمشرب، وبذات الوقت هم أيضًا كانوا موضع اتهام ومسائلة من قبل بعض البيشمركة على أنهم يقدِّمون المعلومات للجيش وقوات الجاش العميلة، ولذلك فهم بمعيشتهم كانوا ما بين نارين وهو أمر محير، لا أعلم كيف كان باستطاعة أولئك المساكين تدبر أمور حياتهم المعيشية والاستمرار على البقاء وسط هكذا أجواء ملغومة.

من ناحيتنا أنا وقريبي في بيتنا الخشبي الصيفي، فقد كان قريبي يمارس النفاق بأعلى مستوياته وبأرخص صوره الدنيئة، عندما كان يحرص باستضافة من كان له شأن رفيع بتلك المجاميع المقاتلة ليقدم له المأكل والمشرب والمديح الزائف، باستثناء حالتين فقط، عندما ضيف بعضًا من معارفه الذين وصفهم بأنهم كانوا أقاربَ لنا، وهم في طريقهم بالذهاب لإيران لتقديم اللجوء، ليحاولوا بعدها الانتقال للسويد، وقد دعوني للذهاب معهم وأبيت أن ألبي دعوتهم. ومن تلك الشخصيات المهمة التي استضافهم قريبي الشخصية المعروفة بحزب الاتحاد الوطني واسمه "مصطفى جاو ره ش"، عندما كان يعرب له عن مدى إعجابه وتأييده لحزبه، ناعتًا الأحزاب الأخرى بأشنع الأوصاف القبيحة. ونفس

الكلام وبيوم آخر كان يكرره بحضرة القيادي المعروف "قادر قادر" من الحزب الديمقراطي الكوردستاني، فتراه يمتدحه ويترحم على الملا مصطفى البارزاني الذي شتمه بالأمس بحضرة "مصطفى جاو ره ش" ويشتم كل الذين جاءوا بعده من الأحزاب والقيادات الكوردية.

لقد كان قريبي الانتهازي هذا الذي أعتبره سبة بوجه عائلتنا بكل تفرعاتها، يمارس تلك اللعبة الرخيصة القذرة وهو مطمئن البال، لعلمه أن الرجلين لم ولن يلتقيا ليخبر أحدهما الآخر ما كان من أمر قريبي معهما، بسبب الخلاف الدائم بين حزبيهما، ومن ناحية أخرى كان نفس التوجه بنفس ذلك السلوك الرخيص، يفعله مع كل من كان يستضيفه من قادة بقية الأحزاب، والعجيب بالأمر أنه كان بكل مرة وبعد أن ينصرف ضيوفه يلتفت لي ويسألني بكل وقاحة عن رأيي بأدائه بتلك المسرحيات الرخيصة، التي كان يفتخر أنه قد أدى دوره بها على أتم وجه، والأكثر وقاحة من كل هذا كله، فلقد ذكر لي كيف أنه كان يقوم بنفس ذلك الدور المخادع أثناء علاقته مع بعض من أفراد الاستخبارات العسكرية الذين كانوا يرتادوا دكانه بداخل مدينة السليمانية، وكأنه بذلك أراد أن يقول متباهيًا بتلك التصرفات الدنيئة والرخيصة إنه لم تبقَ لحية إلا وقد ضحك عليها، ولم يترك أي حبل إلا وكان قد لعب عليه!

المصيبة أن كل تلك الأساليب الرخيصة كان بالإمكان أن يفعلها أي شخص عديم التربية من أبناء الشوارع، ولكنه لم يكن كذلك، لأنه ابنًا لرجل قل نظيره بطيبته وصدقه وسماحته، وكان من بين الشخصيات الرفيعة في السليمانية، ولكن هكذا هو القدر، ورُبَّ نارٍ على علم تخلف العار كل العار.. والأدهى من كل هذا لقد طلب مني ذلك القريب الانتهازي أن أتعلم منه النفاق لأقلده وأقتدي به، وأنا الذي على مدى الثلاثة عشر سنة الماضية كنت ممتنعًا وبشدة من الانضمام

لحزب البعث الحاكم، ولم أقبل حتى مجرد إدراج اسمي بقوائم الحزبيين من غير أن أكون ناشطًا لديهم، على الرغم من كل الضغوط التي مورست ضدي، وكان أخرها هو إجباري بالتوقيع على حق إعدامي بحالة الكشف مستقبلاً لو أنني انتميت لأي حزب آخر غير حزب البعث الحاكم، وكان مبدئي الذي جعلني أصمد أمام كل تلك الضغوطات والتهديدات هو المثل الكوردي القائل: إذا لن تستطيع أن تكون وردة فاحرص على أن لا تكون شوكًا.

وأنا في الحقيقة لا أؤيد القول القائل أن التاريخ يعيد نفسه، لأن الزمن يمشي ولن يتوقف أو يرجع للوراء، وهذه حقيقة كنت ولازلت من المصدقين بها، ولكن سلوك قريبي الانتهازي هذا، وسلوكي باعتبارنا أبناء أولاد العم، وأن جدي وجده هم أخوة من نفس الأم والأب، فلقد كان جده عارف أفندي الذي هو الشقيق الأصغر لجدي الحاج علي اللذان كانا على خلاف دائم أدى بالنتيجة لفراقهم، ومثال الشبه أن جده كان حريصًا على معاشرة علية القوم من الذين هم بمستوى عائلتنا العريقة، وكانت له أساليبه الخاصة بالتعامل مع الناس على النمط البرجوازي، وكان يطلب من أخيه الأكبر الذي هو جدي أن يحذو حذوه وينتهي عن معاشرة ومجاملة بسطاء القوم، من الفقراء والعامة، لأن ذلك بحسب اعتقاده يقلل من شأنه وهو أحد أعضاء محكمة السليمانية، المشكلة من أعيان السليمانية وأشرافها في العشرينيات من القرن المنصرم.. وانتهى بهم الخلاف والجدل بالفراق الأبدي، بخروج جدي من السليمانية إلى غير رجعة ليستقر بكركوك، التي أضاع فيها حاله وماله الذي ورثه من أبيه الحاج حسن أفندي المتوفي بعام ١٩٢١م، وانعكس ذلك من بعده سلبًا على كل أولاده وأحفاده الذين لم يصلهم شيءٌ من ذلك الإرث الكبير، وأنا أحدهم.

قد تكون مقولة إن التاريخ يعيد نفسه عندما يكون هناك تشابه بالسلوك بين أفراد من نفس العائلة عبر زمنين هي صحيحة، من غير الضرورة لأن تكون التفاصيل هي نفسها، وهذه حقيقة علمية تحدث نتيجة انتقال الجينات التي تحمل الصفات الوراثية لسلوك شخص ما، لتظهر عبر جيل أو أجيال قادمة بشخص آخر، من نفس تلك العائلة وبنفس الصفات بشكلها العام..

هكذا كان قدري وقدر قريبي الانتهازي في الحياة، وأنا كنت متفهمًا لهذه المواضيع، الأمر الذي دعاني لأن أصبر عليه ولا أخالفه أو أفترق عنه كما فعل جدي وجده، وذلك وفاءًا للجميل الذي شملني من جميع أفراد عائلته من أخوة وأخوات وأبيه، ذلك الرجل الذي هو بقمة الأخلاق والرقي، وأستطيع أن أجزم أن كل من عاشره وتعرف عليه لم ينسَ طيبته وكرم أخلاقه، وهو الذي كنت ولا زلت أضعه بمنزلة والدي رحمه الله، ولولاهم جميعهم لما كنت سأتمكن من أن أعيش تلك الأيام الخالدة وسط الأجواء التي كنت أعتقد بأنها كانت جنة الله على الأرض..

وعلى هذا الأساس جعلت نفسي حارسًا أمينًا له، خشية عليه من المخاطر ونحن نعيش في العراء، وكان هذا هو واجبي تجاهه بأن لا أسمح أن يصيبه أي مكروه وأنا موجود لجانبه كابن عم، حتى أنني دعيت له من كل قلبي عندما كان مبيتي بإحدى الليالي بجامع القرية أثناء زيارة عائلته له لبضعة أيام بأن يرزقه الله بالولد الصالح، لأن باقي ذريته من البنات، وقد استجاب الله لدعوتي الصادقة الخالصة ورُزق بعد عودته للسليمانية بولد أسماه جده بـــ: نورس، تيمنًا بقرية ناوره س التي هي منبع أصولنا بكوردستان تركيا، ومنها أكتسبنا لقب النورسي.

ومرت الأيام وكنت في كل يوم جديد أتعلم مزيدًا من مفردات اللغة الكوردية التي استفدت منها بمراحل لاحقة من هذه الرحلة، وقد دام ذلك الحال على مدار ستة أسابيع مرَّت بهدوء، عدا حالة استنفار واحدة مرَّت علينا بتلك القرية وجعلتنا نعيش بأجواء الحرب، عندما أغارت بعض طائرات الهليكوبتر السمتية على أطراف القرية، أثناء جولتها بتلك المنطقة، وقد رصدت هناك بعضًا من قوات البيشمركة، فوجهت نيرانها باتجاههم، وهم بدورهم وجهوا الضربات لها، وكنت حينها على عتبة باب الكپر أحلق ذقني بوقت العصر، وعلى الرغم من أن القصف كان بعيدًا عنا بعض الشيء، لكن بعض الأهالي في القرية تحسبوا له، وعلى الفور أسرعوا باتخاذ التدابير التي تعودوا عليها أثناء أي مداهمة لقريتهم من قبل أي قوات تابعة للجيش، وذلك بإخفائهم للسلاح إن وجد، أو إخفاء الحلي الذهبية للنساء وذلك بدفنها في الأرض على وجه السرعة...

كانت رباطة الجأش بادية على وجوههم، باستثناء شلة الفارين من شباب مدينة السليمانية، الذين التجئوا تحت أشجار الجوز الكبيرة ليحتموا بظلالها، وهم على درجة عظيمة من الخوف والهلع الذي لم يكن له أي مبرر على الإطلاق؛ لأن الموضوع لم يكن يستحق كل ذلك الهلع الذي رأيته باديًا على وجوههم المرعوبة عندما تجمعوا كلهم تحت أشجار الجوز الكبيرة، وكان قريبي بوسطهم يتلو بهلع مصحوب بالخوف بعض الأدعية الدينية.

بالنسبة لي فقد بقيت جالسًا بمكاني لأني وجدت أن الطائرات قد ارتفعت وابتعدت عنا، نتيجة ضرب البيشمركة لها بصواريخ مقاومة الدروع أر بي جي التي لم تصل للطائرات وإنما تفجرت بالجو، وهذا وحده كان كافيًا لأن تبتعد الطائرات عن تلك المنطقة، والسبب الآخر الذي جعلني جالسًا بمكاني هو لأني أعلم أن الطائرات ترصد أي هدف متحرك على الأرض، وتعتبره هدف لنيرانها،

وهذا أمر معروف في الحياة العسكرية، وعليه قررت المواصلة بحلق ذقني متعمدًا أن أظهر عدم مبالآتي، بقصد أن يشاهدني بعض الذين اتهموني أني لن أتمكن من مواصلة المعيشة بحياتي الجديدة هذه، وهم على تلك الحالة من الفزع المخزي غير المبرر تحت تلك الشجرة الكبيرة.

ومن الجيران الذين كنا نسكن بجوارهم ولا زلت أتذكرهم بإحسان شخص يدعى نامق محمد الچته، وكان آمر لإحدى المفارز القتالية لحزب الاتحاد الوطني، لقد كان على موعد مع الإعدام أثناء تواجده بأحد المعتقلات بمحافظة كركوك، ونجا في اللحظات الأخيرة إثر نجاح المفاوضات التي حصلت بين حزبه والحكومة العراقية بتبادل المعتقلين من كلا الجانبين الكوردي والحكومي، وفور إطلاق سراحه رجع مباشرة ليلتحق بمجموعته المقاتلة بدون أن يذهب لزيارة عائلته في السليمانية، وعلى أثرها التحقت به عائلته إلى قرية "گورگه ییر" حيث يقطن والده محمد الچته، وهو رجل مزارع طاعن في السن من أهل نفس القرية، وقد بنى كاك نامق لهم مسكنًا يقيهم من برد الشتاء وانصرف هو للنضال.

وخلال فترة إقامتي القصيرة بجوار بيته لم أكن أراه يوميًا وهو مسترخيًا تحت الشمس أو نائمًا ببيته، لأنه على الدوام إما أن يكون ذاهبًا مسرعًا ليلتحق بمجموعته، أو عائدًا لبيته ليمكث فيه لفترة قصيرة، وكان باستمرار أثناء ذهابه وإيابه يسألنا إن كنا بحاجة لأي شيء ينقصنا أو يستطيع أن يفعله من أجلنا، حتى أن صاحبي الذي كان مولع بالتقرب من قادة ومسؤولين الأحزاب من أجل أن يتملق لهم لم يجد الفرصة ولو لثواني معدودة لممارسة النفاق مع هذا الرجل الشجاع الشهم، لأن كاك نامق لم يكن لديه متسع من الوقت يهدره بالاستماع لترهات صاحبي، الذي أدرك ذلك ولجم نفسه عن ممارسة هوايته المفضلة بالتملق.

وفي الجهة الأخرى من القرية كان هنالك شخص آخر كنت أتبادل وإياه الاحترام والمحبة المتبادلة، وهو پيشمرگة سياسي مثقف، وكان يتكلم اللغة العربية بإتقان ويسكن مع زوجته وابنه حديث الولادة، ويسميه أهل القرية بمحمد پيشمرگة، وهو من أهالي السليمانية وتربطه علاقة مصاهرة بقريبي الذي أسكن معه، باعتبار أن زوجات الاثنين أخوات، وهو أول من نبهني بالسلوك المخزي لقريبي، وحدثني عن بعض التصرفات المخزية التي سجلها عليه بهذا الجانب.

بنفس الوقت كان قريبي شديد الحرص على إبعادي عن كاك محمد پيشمرگة، وكان يتعمد عدم اصطحابي له عند زيارتهم، وإذا صادف أن وجدني بصحبته فإنه كان يختلق أي عذر من أجل إبعادي عنه، كي لا نتقارب أكثر، وعندما تكرر الموضوع لعدة مرات سألت قريبي عن السبب فلم يجب بإجابة واضحة، علمًا أن الجواب سيأتي لاحقًا بما سيلي من أحداث ستفسِّر سلوك قريبي هذا، ولماذا كان يبعدني عن كل من كان قادرًا من أهل القرية، من الذين بإمكانهم إرشادي للطريق الصحيح باختيار الفصيل الأصلح بالثورة الكوردية.

وهكذا أكون قد استوفيت شرح تفاصيل تلك الفترة التي قضيتها بقرية "گورگه يير" لحوالي ستة أسابيع، وما حصل خلالها، حتى جاءت فترة التحاقي بالثورة الكوردية كما خطط لها قريبي، وقد تزامن ذلك عندما أصدرت الحكومة العراقية عفوًا خاصًا عن الكورد من الذين كانوا هاربين من الخدمة العسكرية وذلك بتسريحهم من الخدمة حال التحاقهم بدوائر تجنيدهم، وهذا ما كان ينتظره قريبي وما انتظرته أنا أيضًا من أجل أن أفترق عنه بإحسان، ليعود هو لأهله في السليمانية وأعود أنا لأهلي بكل ربوع كوردستان، حيث الثورة والنضال، وإن كنت بحقيقة أمري متحيرًا بأي فصيل سألتحق، لأن قريبي كان قد حرمني

من الاطلاع على تفاصيل عمل تلك الفصائل المقاتلة للأحزاب الكوردية، ولكني لم أعر لذلك الموضوع أي اعتبار، لأنني وكلت قريبي بالاختيار بدلاً عني لأحد الفصائل التي له مصلحة معهم، وبالنتيجة سأقدم الخدمة لكوردستان من خلال الالتحاق بهم، وكنت واهمًا جدًا بهذا لأني بعدها دفعت الثمن غاليًا نتيجة ذلك الاختيار الخاطئ.

وفي تاريخ العشرين من تموز ١٩٨٢ المصادف ثالث أيام عيد الفطر؛ أبلغني قريبي عن نيته بالمغادرة في اليوم التالي لكي يعود لأهله في مدينة السليمانية، وسألني للمرة الأخيرة إن كنت قد غيرت رأيي، واستجدت لدي رغبة في الرجوع لما كنت مقدمًا عليه؟ فأخبرته برغبتي بالبقاء وليذهب هو بألف سلامة، وسأرى ما أنا فاعل بقادم الأيام، فاعترض على ذلك بحجة أنه لا يأمن عليَّ بالبقاء وحدي، إلا إذا انضممت لأحد الفصائل المسلحة التي ستحميني بدورها بحسب تعبيره، فأجبته أن هذا ما سأفعله، فأبلغني بأنني يجب أن أفعل ذلك أثناء وجوده من أجل أن يطمئن علي، فسألته كيف يكون ذلك وهو سيرجع لأهله بالغد، وعندها أطلعني على كل الترتيبات والاتفاقات التي تدبرها من خلال الاتفاق مع مجموعة من الحزب الديمقراطي كانت تدعى "ناوچة ماوه ت" [١]، كان يترأسها رجل يدعى "قادر قادر"، وهو نفس الشخص القيادي الذي كان أحد ضيوفنا كما أسلفت بالذكر...

ولأنني لم أمانع فقد اصطحبني على عجل إليهم، وهم على أطراف القرية يهمون بمغادرتها.. والحقيقة أنني لم أكن أبالي حينها بالكيفية التي حصلت بها تلك الخطوة السريعة، التي نتجت عن ترتيبات وتحضيرات مسبقة لقريبي الذي

(١) كلمة "ناوچة" تعني مجموعة، وكلمة "ماوه ت" اسم لإحدى القصبات التابعة لمنطقة شهرباژير.

تصورت بكل سذاجة أنه سخَّر قمة حيله من أجل مصلحتي بذلك الشأن، وطبعًا كنت واهمًا لأنه فعل ذلك لمصلحته بالدرجة الأولى، غير مبالٍ بحياتي، وهذا ما سأكشفه بمراحل لاحقة... المهم بذلك الموقف أني شعرت حينها أن همًا سينزاح عن صدري بفراقه على الرغم من ضبابية الظروف القادمة وما كان ينتظرني فيها...

التحقت بمجموعة ناوچة ماوه ت وتبادلت كلمات الترحيب مع رئيسهم قادر قادر، ولأن جميع أفراد البيشمرگة لهم أسماء وهمية أخرى فقد سألني عن رغبتي باختيار ما يناسبني من أسماء، فكان جوابي سريعًا من غير أن أفكر باسم "سه رچل" وهو اسمي الحقيقي عند الولادة وقد تمَّ تغييره لاحقًا، ولأن قادر قادر كان يعرف أنني كنت في الجيش العراقي برتبة نائب ضابط، فلقد منحني كنية رمزية وهي ملازم ليصبح اسمي ملازم سه رچل.
بذلك الاسم قدمني الرجل لمجموعته وعندها سأل أحدهم بصوت مرتفع: ملازم من أي جيش؟ أجابهم رئيسهم ضاحكًا: من الجيش العراقي طبعًا! ولكني شعرت حينها بانقباض بصدري لأن هذا السؤال لم يكن ساذجًا باحتمال تواجد ضباط من جيوش غريبة أخرى بصفوف تلك المجموعة القتالية.

على أية حال هكذا سارت الأقدار، فعلى الرغم من أن المفاجأة التي أعدها لي قريبي كانت غريبة بدقة توقيتها، وبغض النظر عن ما سبق هذا الحدث من تفاصيل سيئة حصلت معي، وأطلنا الحديث فيها مرغمين أثناء تتبعنا لأحداث بداية رحلتي هذه، فإنني كنت قد وجدت نفسي بتلك اللحظة التاريخية من عمري على درجة عالية من الثقة بالنفس وتغمرني سعادة حقيقية لأنني لم أعد فردًا من رواد تلك المقهى الصيفية جالسًا أتبادل الأحاديث السقيمة مع التافهين من بعض الشباب، بل أصبحت جزءًا من مجموعة قتالية لها دورها وفعلها بأفرادها البالغ عددهم أكثر من أربعين مقاتلاً، وقد اعتبرتهم إخوتي أساندهم ويساندونني

في المصاعب والشدائد، للدفاع عن حقوق شعبنا الكوردي، لقد كانت فعلاً لحظة تحول تاريخية بكل ما تعنيه هذه الكلمة، فأول النهار كنت غريبًا هاربًا أبحث عن هوية بكوخ خشبي متواضع، وأخر النهار تحولت إلى جزء من قوة ضاربة، من غير أن يأتي على بالي ولو لبرهة أن قريبي هذا قد أرسلني للجحيم لأنه كان يعرف أن هذه المجموعة لن تعود بجولاتها لمنطقتنا هذه، وأن مقراتها على الحدود الإيرانية العراقية، وذلك ما فسر عدم سماحه لي أن أبقى بقرية "گورگه ييرا"، باحتمال أن أنضم لحزب الاتحاد الوطني الذي كان لديه مقر بنفس قريتنا، يديره ذلك الرجل المثقف المحترم كاك محمد پيشمرگة الذي هو عديل لقريبي هذا، وكل أهل تلك القرية كانوا يعرفونه ومطلعين على مكان سكنه في السليمانية، وهم بالتأكيد يعلموا بصلة القرابة التي تجمع بيننا وبالتالي فمصلحته جعلته غير مباليًا بحياتي ومصيري، لأن مصلحته كانت تحتم عليه بأن يرسلني بعيدًا جدًا من أجل ألا يناله ضرر كما صوَّر له عقله المريض إذا ما بقيت في القرية وحدث لي حادث أو تسببت به، فإنهم سيقولون إن هذا الپيشمرگة هو قريب لفلان الذي بيته في المنطقة الفلانية من السليمانية، أما إذا حصل لي أي شيء بمكان بعيد لا يعرفه أحد من الناس هناك فعندها سيكون بمأمن..

وأخيرًا اتخذت موقعي ضمن المجموعة القتالية العائدة للحزب الديمقراطي لكوردستان العراق، بزعامة مسعود البارزاني وكانت تدعى "تاوچة ماوه ت"، وقد تمَّ تزويدي ببندقية كلاشنكوف بالإضافة لمخازن عتاد إضافية عدد أربعة، ناهيكم عن الجعبة العسكرية التي جلبتها معي من القرية وحملتها على ظهري، وكانت تحوي كل الأشياء الضرورية التي قد أحتاجها، كبدلة احتياطية للزي الكوردي، مع أدوات للحلاقة، وطقم من الملابس الداخلية، ومنشفة وبعض الصابون لغسل الوجه والملابس عند اللزوم، وكنت الپيشمرگة الوحيد الذي كان

يحمل معداته الشخصية بجعبة على ظهره بتلك الطريقة العسكرية ضمن مجموعتي أو أية مجموعة أخرى من البيشمركة بباقي الأحزاب، حتى أن رئيسي قادر قادر أظهر إعجابه بذلك وشبهني بالجندي الأمريكي، وإن كنت لم أستحسن ذلك التشبيه، ولكني أجبته قائلاً: هكذا يجب أن يكون البيشمركة الفدائي بنظري، نظيفًا وأنيقًا وجاهزًا لأي طارئ من أجل أن يكون قدوة يحتذى به من عامة الناس الذين من حولنا أو مَنْ نمرُّ بهم.

مشيتُ مع رفاقي في السلاح بالرتل المنفرد، وذلك يعني بأن يمشي أحدنا خلف الآخر بمسافة عشرة أمتار على الأقل، وهو نفس النهج الذي كانت عليه جميع مجاميع البيشمركة من كل الأحزاب من تلك التي كانت تتوافد على قريتنا أثناء دخولها وخروجها منها، عدا بعض المجاميع من قوات حزب الاتحاد الوطني من الذين كانوا يستقلون سيارات البيك أب عندما تكون لديهم أية فعالية قتالية أو ما شابه، وهو أمر كان يختلف عن بقية الأحزاب ومنها الحزب الديمقراطي، لأنهم كانوا يسيرون بكل جولاتهم وحتى أثناء مهامهم القتالية مشيًا على الأقدام، منذ الصباح الباكر وحتى مغيب الشمس، باستثناء وقت الظهيرة عند تناول طعام الغداء وأخذ قسط من الراحة..

مشيت خطواتي الأولى معهم ولم أكن أعرف وجهتي وإلى أين نحن سائرون، لجهلي بمسالك وتضاريس تلك المنطقة، حتى وصلنا إلى إحدى القرى القريبة، وفيها توزعنا من أجل تناول طعام العشاء في بيوتها، وكان نصيبي أن أكون بصحبة اثنين من رفاقي أثناء استضافة إحدى البيوت لنا، وهناك تمَّ الترحيب بنا وجلسنا بانتظار ما سيقدم لنا من طعام بحسب الإمكانية المادية لتلك العائلة، وبعد انتظار جاءنا العشاء وكان عبارة عن بعض الخبز القديم وقدح من الشاي لكل واحد منا، فأكلت القليل من الخبز وشربت الشاي من باب المجاملة لأنني لم

أكن جائعًا بحق، وكذلك بسبب عدم تعودي حتى تلك الفترة على مثل هذه الوجبات الفقيرة من الطعام، فقلد كانت معظم وجباتي الغذائية السابقة معتمدة بالدرجة الأساسية على ما تبيعه مقهى القرية من مشويات، وكانت لي القابلية المادية للشراء التي لم تكن متوفرة لباقي الشباب المقيمين في القرية.

بعد أن غادرنا بيت مضيفنا الذي زودنا ونحن نخرج من بيته ببعض الأغطية التي سنحتاجها أثناء النوم، وحينها اعتقدت أننا سنتوجه للمبيت بجامع تلك القرية، ولكن رفاقي فاجأوني بالقول إنهم لا يبيتوا في جوامع القرى ليلاً كما تفعل المجاميع المسلحة الأخرى لباقي الأحزاب، فهم يقضوا ليلتهم على سفوح أعلى التلال التي تحيط بكل قرية يبيتون بها خشية الغدر، فسألتهم:

– الغدر ممن والقوات الحكومية بضمنها قوات الجاش العميلة بعيدة جدًا؟!

– نحن نخشى الغدر من بقية الأحزاب الكوردية، فدماء رفاقنا الشهداء لم تجف حتى الآن.

– متى وأين كان ذلك؟

– حدث ذلك قبل أربعة أشهر عندما كنا بفصل الربيع وجئنا للانتشار في هذه المنطقة بعد أن تركناها منذ عام ١٩٧٥ إبان النكسة التي يسميها البعض بـــ: "عيش به تال"، على أثر اتفاقية الجزائر التي أبرمتها الحكومة العراقية مع الحكومة الإيرانية التي كانت حليفتنا آنذاك وتخلت عنا على أثرها، وبسببها انهارت الثورة الكردية بزعامة الملا مصطفى التي كان تعداد مقاتليها أكثر من مائة ألف مقاتل، ومنذ ذلك الوقت ونحن لاجئين بإيران حتى رجعنا في الربيع الماضي واستقبلنا حزب الاتحاد الوطني بالقذائف والهاونات، وبجميع الأسلحة الخفيفة من أجل أن يمنعنا من الدخول لهذه المنطقة، الأمر الذي أدى إلى اشتباك مسلح عنيف بين القوتين، لم يفصله سوى قصف الطائرات الحربية للحكومة لكلا الفريقين، وعلى أثرها نجا من نجا ومات من مات سواء بنيران

الطائرات أو بنيران الأخوة، وعلى أثر تلك المجزرة تمَّ التفاهم بين قادة الطرفين الديمقراطي والاتحاد الوطني، على أن لا يتعرض أحدهم للآخر بكامل المنطقة التي هي خارج نفوذ الحكومة حقنًا لدماء الطرفين، ومنذ ذلك الحين ونحن نتوجس الحيطة والحذر بكل تحركاتنا خشية من أن نؤخذ ونحن غافلون بمباغتة من أي طرف مسلح لنا...

لقد كنت أعلم من خلال إقامتي بقرية "گورگه يير" أن الحزبين الرئيسيين هما الديمقراطي الكوردستاني، بزعامة مسعود البارزاني والاتحاد الوطني بزعامة جلال الطالباني، هما أكبر القوات الموجودة على الساحة الكوردية، وهما لم يكونوا على مودة وأخاء، لاعتقادي حينها أن الخلاف الحاصل بينهم هو عقائدي، ولكني لم أكن أعلم بقتالهم هذا، ومن أين لي أن أعلم وقريبي الانتهازي حجم كل خطواتي وكان يعد علي أنفاسي؟؟ لقد كان لوقع هذا الخبر على نفسي بالغ الأسى، فلم أكد أمضي ليلتي الأولى معهم حتى تكدر بالي واهتزت كل أركان الصورة المثالية التي رسمها لي قريبي عن هذه المجموعة، وأولى الأشياء التي قفزت لذهني حينها هو السؤال المحير: ماذا سيكون موقفي إذا ما أُمرت بتوجيه بندقيتي إلى ظهر أي فرد من إخوتي البيشمرگة من الأحزاب الأخرى؟ سؤال جوابه كان حتمًا عصيان مثل هذا الأمر إذا ما توجه لي، ولكني هونت على نفسي بالتمني أن ذلك الموقف بقتال الأخوة لن يتكرر وما حصل قد حصل وأصبح من الماضي وأن الاثنين أخذا العبرة من تلك الواقعة المخزية بل المخجلة.

لقد كنا نتحادث نحن الثلاثة في هذه المواضيع ونحن نتوجه بالصعود لأعلى قمة في إحدى التلال المحيطة بتلك القرية، وهناك وجدنا باقي أفراد المجموعة من الذين سبقونا وتوزع البعض منهم على جوانب ذلك التل من أجل الحراسة،

وتم تبليغ الباقين بمواعيد نوبات حراستهم الليلية وحتى بزوغ الخيط الأول من الفجر، وكنت ليلتها من المستثنين من نوبات الحراسة لتلك الليلة فقط باعتباري جديد العهد بها، قضينا ليلتنا هناك وسط الظلام الدامس وبالكاد كان أحدنا يرى الآخر، ولم نستطع أن نشعل أي مصباح لنرى طريقنا على الأقل كي لا ننكشف من قبل من نتوجس منهم الخيفة والحذر.

افترشت الأرض من تحتي وجعلت من حذائي وسادة تحت رأسي آملاً أن أغفوا مثل باقي زملائي، ولكني بقيت مستيقظًا حتى الصباح الباكر أضرب الأخماس بالأسداس، آملاً الحصول على جواب لعدة أسئلة، كان أحدها هو: هل أخطأت التقدير عندما سلمت أمري لقريبي؟ أم أن الأمور ستتحسن وسأعتاد قريبًا مع الوقت على تلك الحياة الخشنة، وإذا كان قريبي قد رمى بي بعيدًا عن الناس الذين تعودت عليهم بقريتي "گورگه بير" فهناك الكثير من هم بمثل طيبتهم، ثم راودني هاجس آخر وخز ضميري باحتمال أنني قد وضعت نفسي تحت تصرف أحزاب تتصارع من أجل النفوذ والسيطرة، وما سمعته عن قتال الأخوة خير دليل، وبالتالي لن يكون هناك نضال ولا دفاع عن أية حقوق قومية كوردية، وأنا بطبعي شفاف لا أحب الغدر ولا الخيانة وعلى مدى عمري البائس من التسعة والعشرين عامًا الماضية لم أعاشر الخونة ولا القتلة من الكورد أو غيرهم.. ولكني بأخر المطاف ونتيجة لاستعراضي كل تلك الأمور؛ ارتأيت أن أستمر بما بدأته من أجل أن تتوضح لي صورة ذلك المشهد كاملاً، وبالنسبة لظروف الحياة اليومية القاسية فإني واثق من تذليلها بالصبر والتحمل والتعود عليها والأيام القادمة كفيلة بذلك..

وقبل شروق الشمس أيقظ الحراس الذين كانوا بنوبتهم الأخيرة جميع أفراد المجموعة، من أجل إخلاء المكان والنزول فورًا قبل أن نصبح أهدافًا لنيران طائرات الهليكوبتر الحكومية أثناء دورياتها المعتادة بكل صباح.. استيقظ الجميع

من نومهم باستثنائي لأني كنت مستيقظًا لم يغمض لي جفن طيلة الليل، وحينها وجدت نفسي مستلقيًا وسط مقبرة قديمة تناثرت حجارة قبورها من حولي، وهذا الذي لم أدركه طيلة الليل بظلامه الدامس. نزلنا لجامع القرية ومن ثم لنرجع الأغطية لأصحابها الذين تعشينا عندهم بالأمس، لنجدهم باستقبالنا في الصباح وقد ضيفونا لطعام الإفطار الذي عادة ما يكون القليل من الخبز وبعض اللبن وقدحًا من الشاي.

مضت سبعة أيام على التحاقي بناوچة ماوه ت ونحن نتجول خلالها في القرى، وكنت طيلة تلك الفترة بلياليها ونهارها، وعلى الرغم من الجهد والتعب الذي لم يثنِ عزيمتي كنت كأقل تقدير أمل بأن أهنأ بساعة من النوم، أو على الأقل أستطيع أن أغمض جفوني، فالأمر لم يكن بيدي وهو خارج عن إرادتي لأنني لست متعودًا على النوم فوق التراب مباشرة متوسدًا بحذائي من تحت رأسي، وهو أمر أشبه أن يطلب من أحدنا أن ينام وهو واقفًا، وقد لاحظ رئيسي قادر قادر بعض التغيير على ملامحي وسألني هل أنني لا زلت متمسكًا ومصرًا على الاستمرار معهم أو أنني قد غيرت رأيي وأرغب بالعودة كما فعل قريبي ومن هم على شاكلته؟ فأجبته بإصرار أنني لازلت عازمًا على المضي بطريق النضال، وأنني كنت على دراية أن هذا الطريق لن يكون مفروشًا بالورود، وإنه سيكون حتمًا معبدًا بالشوك، وأنني حتى الآن لم يصادفني أي شيء يجعلني أغير رأيي بما نويت وعزمت عليه... فقال لي الرجل كما تشاء وأنت مرحب بك على الدوام ولا تتردد بأن تسألني عن أي شيء لألبيه لك عن طيب خاطر، فشكرته لكلامه الطيب معي، والشهادة لله فعلاقتي به كانت محترمة جدًا طيلة فترة تواجدي بناوچة ماوه ت وحتى افتراقي عنها.

وكان هناك أمر آخر كنت أعاني منه وتركته للأيام لأنها هي التي ستكون كفيلة أن تجعلني متعودًا عليه، وهو أنني خلال الأيام السبعة الماضية حصل لي إنقاص سريع بوزني وذلك بسبب نوع وجبات الطعام التي كنا نحصل عليها من

الأهالي لأنها كانت بالكاد تسد الرمق، وهي لا تعتبر وجبة غذائية مجزية لما كنا نصرف من طاقة وجهدٍ عالٍ، فتلك الوجبات بأغلبها كانت مكونة إما من الخبز القديم مع الشاي، أو صحن من اللبن الخفيف الذي قد يصلح لأن يشرب بعد تناول وجبة غذائية لا أن يكون هو الوجبة نفسها.. حتى المقاهي التي كانت تبيع المشويات في القرى أغلبها قد اختفى بسبب رجوع الشباب الفارين الذين كانوا يديروها، وإن وجدت إحداها بإحدى القرى الكبيرة فإنه لم يعد بإمكاني أن أنسلخ عن مجموعتي لأكون أحد زبائنها كما كنت في السابق بقريتي "گورگه يير"، بالرغم من وفرة المال بجيبي، لأني كنت أستحي أن أفعل ذلك بسبب مراعاتي لمشاعر رفاقي الذين لم تكن لهم القدرة المالية اللازمة لشراء مثل تلك الوجبات المشوية الدسمة، وعليه ارتضيت أن أقاسمهم بتلك الوجبات البسيطة التي كانت تقدم لنا أثناء توزيعنا على بيوت القرى أثناء جولاتنا المعتادة...

ظللت على ذلك الحال وقد دخلنا بخمسٍ وعشرين قرية صغيرة أثناء تجوالنا اليومي المستمر، وكنت قد سجلت أسماءها بدفتري الصغير وحفظتها عن ظهر قلب، ونسيتها بمراحل لاحقة عندما أضعت دفتر يومياتي، وكانت تلك المنطقة قريبة من جبل كويژه المطل على مدينة السليمانية بسفحه الآخر، وكان أهالي تلك القرى الوديعة عند استضافتهم لي أثناء توزيعنا على بيوتهم يقدِّرون ويثمنون بي روح التضحية والإقدام لما كنت سائرًا عليه، حتى ذهب البعض منهم لأبعد من ذلك عندما قالوا لي بالحرف الواحد: لن تموت أمة الكورد وفيها من هو مثلك، والمقصود بذلك هو إكبارهم لتلك الخطوة التي جعلتني أترك أهلي وعملي وأتوجه إلى قرى كوردستان لأعيش تلك الحياة الصعبة من أجل مد يد العون، وأنا غريب عن المنطقة، ولغتي الكوردية تكاد تكون معدومة باستثناء ما تعلمته خلال الفترة القصيرة الماضية منذ أول مجيئي، حتى أصبحت أتفاهم

مع الآخرين من غير أن أضطر للتكلم باللغة العربية كما كنت أفعل أثناء بداياتي بأيامي الأولى، وكان تقدمي السريع بتعلم اللغة الكوردية نابع من رغبتي الشديدة بالتعلم باعتبار أن من مقومات القومية هي اللغة..

ومرت الأيام ونحن لا زلنا بتجوالنا، وحينها تعودت على النوم في العراء بعد أن تمكن التعب مني، حتى أصبحت بمجرد أن أطوي حذائي لأضعه تحت رأسي أذهب غارقًا بنوم عميق لا أصحى منه إلا على من يوقظني من أجل استلام نوبة حراسة أو حلولاً للصباح، وفي تلك الفترة أيضًا تعودت على تناول ما كان يقدم لي من طعام سواء بالكمية أو النوعية مهما كان نوعه وردائته لأن الجوع هو أمهر الطهاة كما يقال، وبين هذا وذاك فإنني وجدت نفسي سعيدًا بما كنت عليه وهذا هو المهم، فلقد كنت كالفراشة حرًا وطليقًا وإن كنت أخشى بداخل سريرة نفسي بزوال تلك النعمة من خلال عدم استمرار تلك السعادة، بسبب تاريخي المليء بالإخفاقات على مدى العمر كله، من غير أن أحقق أيًا من أمنياتي المتواضعة، عدا أخرها بنيلي لحريتي التي كنت سائرًا بدروبها، فتسألت هل يا ترى سيستكثر القدر علي ذلك؟ سؤال لم يكن لي علم بإجابته حينها والأيام التي تلت تلك الفترة هي التي ستجيب عليه.

بعد جولات عديدة أخرى بأرجاء تلك المنطقة؛ حان الوقت للاتجاه شرقًا حيث منطقة شهرباژير ومقر الناوچة بقرية تدعى بيانة، وهي من كبريات القرى هناك، وفيها أيضًا مقرات الفرع الثالث والرابع (لقي سيه ولقي جوار) للحزب الديمقراطي لكوردستان العراق، بعد أن انتفت الحاجة من التجوال لجميع القرى القريبة من محافظة السليمانية، وهكذا توجهنا شرقًا صوب جبل كاتو گوره الذي كان يشكل ساترًا طبيعيًا، باعتباره كان يفصل المكان الذي نتوجه إليه بمنطقة شهرباژير التي كانت ممتدة حتى الحدود الإيرانية.

وخلال مسيرتنا تجاه جبل كاتو گوره كان لازمًا علينا المرور بقرية "گورگه ييز" التي كانت هي نقطة الانطلاق لي كما أسلفنا بالسرد، وهناك رأيت مكان سكناي السابق مهدمًا بعد أن هجرناه أنا وقريبي، وكذلك نفس الشيء قد حصل لبقية البيوت المؤقتة التي عاد أصحابها إلى مدينة السليمانية، وهناك تملكتني رغبة شديدة بلقاء صديقي محمد پيشمرگة الذي كان عضوًا سياسيًا بحزب الاتحاد الوطني ولكني للأسف لم أصادفه بطريقي حينها ولم يتسنَ لي أن أترك مجموعتي للذهاب للسؤال عنه في بيته، لأننا لم نتوقف للاستراحة في القرية، وكنا نمشي بطريقة الرتل المنفرد، وقد تغيرت الكثير من معالم تلك القرية الوديعة التي كانت تعج بساكنيها، وأصبح منظرها مبعثًا للكآبة بعد أن تفرق الناس عنها، وأصبحت تخلو من أي حركة كنت قد تعودت أن أشاهدها أثناء فترة إقامتي بها.

لقد كان مرورنا سريعًا ونحن نحث الخطى للتوجه باتجاه جبل كاتو گوره، وكانت رحلة شاقة مررنا خلالها بطريق وعر كان يشق وسط الجبل، وباجتيازه اتضح المشهد جليًا من أمامنا حيث المنطقة المفتوحة الواسعة الأفق لمنطقة شهرباژير، وأثناء نزولنا إلى منطقة السهول كانت عيوننا نحو السماء تنظر وتتحسب لمرور أي دورية استطلاعية لطائرات الهليكوبتر التي ستمطرنا بوابل نيرانها فور اكتشافها لنا، لأننا كنا مكشوفين من غير أي عائق طبيعي يسترنا وسط ذلك السهل المنبسط، حتى تمكنا بوقت قياسي من الوصول إلى مانع مائي لنهر متكون من الروافد والعيون المنتشرة بكل مكان من تلك المنطقة، فجلسنا هناك لنأخذ قسطًا من الراحة بانتظار مرور إحدى الجرارات الزراعية من التي تسحب في العادة عربة خلفها وكانت منتشرت بتلك المنطقة، وفعلاً مرَّت بنا إحداها وعبرنا بها على مراحل للضفة الأخرى.

وأثناء كل تلك المسيرة لم نشاهد أية قرية على الطريق الذي سلكناه وذلك يعني عدم إمكانية حصولنا على أي طعام أو شراب منذ الصباح الباكر وقد أوشكنا على وقت الغروب، ولكننا بعبورنا لذلك النهر أصبحنا قريبين من قرية تدعى مام خلان وهي قرية كبيرة ومعروفة بموقعها الذي يقع على الطريق المؤدية لقضاء چوارتا، وسرعان ما وصلنا لتلك القرية وتوزعنا في الحال بمساعدة مختار القرية على بيوتها من أجل الحصول على كسرة من الخبز مصحوبًا برشفة من الشاي وهو جُلُّ ما كنا نتمناه بعد قضاء يوم شاق وطويل، منوهًا إلى أن حالة الجوع التي كنت أمر بها لم تكن تعني عندي نوعًا من المعاناة، لأني كنت أعتبرها حالة اعتيادية ملائمة لتلك الظروف التي كنا نعيشها وكنت سعيدًا بتلك المعاناة لأني اخترتها بملئ إرادتي وهو أمر ليس مفروضًا عليَّ بالإكراه وهذا هو المهم، إضافة لبعض الفوائد الصحية التي تتعلق بضرورة التخلص من زيادة الوزن من أجل الحصول على لياقة بدنية تجعلني قادرًا على التنقل أثناء الجولات الراجلة الطويلة أو أثناء أي ظرف طارئ آخر يستوجب منا القتال أو الانتشار.

توالت مسيرتنا عبر منطقة شهرباژير وتجولنا عبر القرى ونحن نتجه إلى مقرنا المؤقت الكائن بقرية بيانة، وقد تعرفت على الكثير من الناس الطيبين، ودعاني الكثير من أهالي تلك القرى لزيارتهم إذا ما تسنى لي العودة لقريتهم، ومن الطرائف التي صادفتني هناك وبقيت عالقة بذهني حتى الآن، هو إنني بإحدى المرات عندما كنت ضيفًا على أحد البيوت سألني رب المنزل عن أصولي فأخبرته أنها من السليمانية ولكني ولدت وتربيت وكبرت في بغداد، ولهذا تجدني لا أجيد التحدث بالغة الكوردية، فتعجب الرجل لذلك وقال:

– كيف نسيت لغتك الكوردية بهذه السهولة؟

– إنني لم أتعلم اللغة الكوردية لكي أنساها بمراحل لاحقة!

– ألم تقل لي إنك من أصل كوردي؟!

– نعم لقد قلت ذلك.

– وكيف يكون المرء كورديًا ولا يعرف لغته؟!

فقلت موضحًا للمرة الثانية:

– إن الناس الذين يعيشون بالمجتمع الذي ولدت وترعرعت به في بغداد لا يتكلمون اللغة الكوردية وهم يتكلمون اللغة العربية التي تعلمتها منهم، وسأضرب لك مثلاً لتوضيح الموضوع أكثر: ابنك هذا الذي يجلس بحجرك حفظه الله وهو بعمر السنتين كما أعتقد إذا ما أرسلته إلى بريطانيا وانقطعت عنه لعدة أعوام فستجده بعدها يتكلم الإنكليزية ولا يعرف أي شيء عن اللغة الكوردية على الإطلاق وسوف تحتاج لمترجم أثناء حديثك وإياه..

فقال معترضًا:

– كيف يكون هذا هو كوردي ابن كوردي؟!

فقلت ضاحكًا:

– هكذا هي لعبة الحياة.

ثم أقفلت الموضوع منتقلاً لغيره لأنه سبب لي صداعًا، لعن الله الجهل والجهلة..

وفي طرفة مريرة من نوع آخر وفي بيت آخر، أخذ مضيفنا يتكلم عن موضوع غلاء الأسعار وما شابه، وورد خلال حديثه عبارة رعب دينار فاستغربت ذلك وسألت أحد رفاقي همسًا عن معنى رعب دينار؟ فقال:

– هو يقصد ربع دينار.

فرجعت لمضيفي وقلت له:

– إنك تقصد ربع دينار أليس كذلك؟

obeikan.com

– عبارة ربع هو المعنى باللغة العربية، ورعب هو ما يوازيه بالمعنى بلغتنا الكوردية، وإذا كنت حريصًا على تعلم الكوردية على أصولها فاعلم هذا وقل رعب بدلاً من ربع.

وقبل أن أنبس ببنت شفة نادى على ولده قائلاً:

– يا جعمة احضر لنا الشاي.

فقلت له:

– من هو جعمة؟

– هو ابني الآخر.

وهذه المرة لم تكن لي الرغبة أن أعلمه أن اسم ابنه الصحيح هو "جمعة" وليس "جعمة" لأن لا جدوى من مناقشته مرة أخرى.

لقد كانت تلك المفارقات طريفة بظاهرها ولكنها كانت محزنة بل موجعة بالنسبة لي، لأنها جاءت نتيجة الجهل لطبقة واسعة من هؤلاء الناس الطيبين الذين لم يكن لهم ذنب، لأنهم لم يتسنَ لهم التعلم جراء ظروفهم المعيشية الصعبة التي توارثوها أبًّا عن جد، والجهل لدى تلك الشريحة من الناس كان هو السبب الذي أدَّى بالكثير منهم للانزلاق إلى الهاوية في بعض الظروف، ومنهم تلك القوات المسماة بالجاش أو الجحوش، وهي قوات عسكرية كوردية تقاتل دائمًا إلى صف الحكومات المتعاقبة على حكم العراق بالضد من تطلعات وإرادة الشعب الكوردي وذلك من أجل كسب منافع مالية.

ومن الأمور الأخرى الجديرة بالاهتمام، تلك التي اكتشفتها خلال تلك الفترة القصيرة وأنا ضمن مجموعتي بناوچة ماوت للكثير من الأمور التي لم أكن أعرفها عنهم، ومنها أن المجموعة مكونة من شريحتين من المقاتلين، فالأولى كانت من كبار السن الذين قدموا من إيران وتركوا عوائلهم هناك ليراجعوهم أثناء الإجازات كأي موظف حكومي، والشريحة الثانية هي جيل الشباب الذين

كانوا بنفس عمري آنذاك أو أكبر بقليل، وكلهم جاءوا من مدينة السليمانية أو بما كان يحيط بها من نواحي، وذلك بسبب ملاحقة السلطة لهم جراء ارتكابهم لجناية أو جنحة أو سرقة أو حتى مشكلة عشائرية، كأن يكون أحدهم مطلوب للثأر، والتحاقهم بالحزب الديمقراطي كپيشمرگة من أجل تأمين معيشتهم وأمنهم الشخصي، وكنت الوحيد بينهم الذي لم تكن له أية مشكلة من التي كانوا متورطين فيها قبل التحاقهم بالثورة الكوردية، فأنا تركت بيتي وأهلي نيلاً للحرية الفكرية ومساندة للثورة الكوردية، وقد أصبحت مطلوبًا لسلطات الدولة كنتيجة طبيعية لانخراطي بعمل عسكري بالضد منهم..

ومن المؤسف حقًا أنني من خلال اختلاطي بصغيرهم وكبيرهم وجدت أن القوم لا يفقهون من السياسة ولا حتى الشيء اليسير المبسط من الفهم لما كان يجري في كوردستان على أقل تقدير، ناهيك على أن أغلبهم كان يجهل تاريخ الكورد كأمة وكشعوب كوردية مجزئة، والشيء الوحيد الذي وجدتهم مجمعين عليه هو ولائهم للعائلة البارزانية فقط كما كانوا يصرحون، على الرغم من عدم مصادفتي لأي مقاتل ينتمي لهذه العائلة، بداخل مجموعتنا القتالية أو بباقي المجموعات المقاتلة بناوچة بنچوين أو بناوچة قرداغ[١] أو بكل تشكيل الفرع الثالث والرابع للحزب الديمقراطي الكوردستاني... وأنا شخصيًا أقر بالدور النضالي لتاريخ عشيرة البارزانيين ولكني لم أسمح لنفسي باتباعهم بشكل الطاعة العمياء لأنهم بشر، ومن الممكن أن يقعوا بالأخطاء، ويتوجب علينا أن ننبههم على مكامن الأخطاء لكي تستقيم الأمور، وهذا الرأي ما لم يتقبله رفاقي في الناوچة بتلك الفترة، وأعتقد أن الأمر لازال على هذا المنوال حتى زماننا الحالي.. منوهًا إلى أن اطلاعي على تلك الأمور التي لم ترق لي هي لم تحز

(١) قه ر ه داغ: منطقة ضمن حدود محافظة السليمانية.

في نفسي ولم تقلل من اندفاعي بذلك الطريق الذي اخترته عن قناعة، لإيماني أن النوايا الحقيقة للناس لا يستطيع أحد أن يقيمها من خلال حديث عابر، وهو شأن متروك لضمير كل فرد منهم، بشرط ألا يعمل على خيانة القضية الكوردية أو يتأمر عليها بسبب خلافاته مع الآخرين من أبناء جلدته العاملين بالفصائل المقاتلة الأخرى لبقية الأحزاب على الساحة الكوردية، فهذا هو مجتمعنا الكوردي بكل أشكال طبقاته الثقافية ويجب علي أن أتقبله.

وما تكشف لي واطلعت عليه كان تحصيل لحاصل ما مرَّت به كوردستان من مآسي وويلات لابد أن يكون لها إفرازات سلبية يجب علينا أن نعمل على تجاوزها، وإن كنت أتطلع بداخلي بالتمني لأن نكون بمستوى نضال بقية الشعوب الحية ومنها على سبيل المثال النضال البطولي للشعب الفيتنامي، أو على الأقل لنكون بمستوى الدم الكوردي المهدور على مدى تاريخ الكورد كأمة.

وبين هذا وذاك من تلك الأفكار التي كانت تراودني حينها وجدت نفسي قد أصابها بعض الزهو والفخر كوني كنت الوحيد من بين رفاقي في السلاح ممن التحق طواعيًا من غير السعي لمكاسب ذاتية، وهو أمر لم أغفره لنفسي التي أنبتها كثيرًا معتبرًا أن هذا التفاخر الذي تحدثت به مع ضميري يعني الترفع على إخوتي وباقي رفاقي الذين أحبوني وأحببتهم، وتلك باعتقادي كانت من ترسبات ومخلفات حياتي السابقة التي أصبحت من الماضي، الذي لن أسمح بالرجوع والعيش به مرة أخرى، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يناله، لأني اضطررت بمرحلة لاحقة بالرجوع إليها نادمًا جراء الخيانة من قبل إخوتي ورفاقي.

مرَّت الأيام وأنا بكل يوم جديد أتعلم شيئًا جديدًا سواءً من ناحية تعلم اللغة الكوردية، أو مسايرة العادات المتبعة، أو حتى بتعلم كيفية لبس الزي الكوردي على الوجه الصحيح كما يفعله أهالي تلك المنطقة، ومنها طريقة لف غطاء

الرأس المسمى بالجامانة، أو طريقة لف الحزام على الخصر المسمى بالبشتين على الطريقة السورانية.

وأخيرًا وصلت مجموعتنا المسلحة ناوچة ماوت إلى قرية بيانة بمنطقة شهرباژير حيث مقرات الحزب الديمقراطي، بعد أن أمضيت مع المجموعة فترة تجوال قاربت الثلاثة أشهر، لأننا حينها قد أصبحنا بأواخر الشهر التاسع من عام ٨٢، وقريتنا هذه كانت كبيرة وفيها سوق لبيع الخضار ودكاكين توفر بعض الحاجات المنزلية الضرورية، وأثنائها لم نتوزع على بيوت قرية بيانة كما كنا نفعل عند دخولنا لأية قرية تصادفنا، بسبب أن مكوثنا فيها سيكون طويلاً، ولذلك كان يتوجب علينا الاعتماد على النفس بتوفير ما نحتاجه من منام وطعام، وعندها اتخذنا من سفوح التلال العالية المطلة على القرية معسكر لمجموعتنا، وكانت بالقرب منا مجموعة من الرفاق المقاتلين من ناوچة بنچوين التي يترأسها رجل يدعى شريف كچل كان بمراحل لاحقة أحد أصدقائي المقربين، وعليه فإن قسمًا من أفراد مجموعتنا قد تحملوا مسؤولية إعداد الطعام بتوجيه من رئيسنا قادر قادر.

لقد كانت مقرات كل مجاميع الحزب الديمقراطي بأطراف تلك القرية هي مقرات مؤقتة، ليس فيها أية مباني أو ما شابه، وإنما هي مقرات صيفية للاستراحة، وفيها أيضًا مخازن الذخيرة والعتاد لأسلحتنا وهي مدفونة تحت التراب بشكل عشوائي، وكان المقر الوحيد المسقف والمبني جدرانه باللبن الطيني هو مقر الفرع الثالث والرابع للحزب الذي يرأسه رچل كبير في السن يدعى نادر هورامي، وفي مقرنا الجديد حصل كل فرد منا على كيس للنوم كالذي يحمله الجندي الأمريكي على ظهره، وهو مصنوع من مادة النايلون العازلة للرطوبة، وفيه سحاب يُقفل من الداخل عندما يدخله من يريد النوم، ويحمي نفسه من البرد أو المطر ليلاً، ولدى سؤالي لبعض الرفاق عن منشأ صناعة هذه

الأكياس؟ أخبروني أنها أمريكية الصنع وإيران هي من جهزتنا بها، فتلعثمت قليلاً وأصابتني الغصة لأني أعلم أن إيران لا تعمل شيئًا من غير أن يكون لها مصلحة به، وبالتأكيد المصلحة القومية الكوردية هي من ألد أعداء الفرس والترك، هاتين الدولتين القوميتين اللتين لا تريدان للأمة الكوردية النهضة والاتحاد بكافة أجزائها.

لقد كان باستطاعة أي فرد منا الذهاب إلى سوق قرية بيانة القريبة منا حيث مسجد القرية والمقهى متى ما شاء أثناء النهار، بشرط أن يستأذن من رفاقه أو إخبارهم على الأقل، مع التشديد أن لا يترك سلاحه في المقر، وهذا ما كنت أفعله كل يوم من أجل التبضع من حسابي الخاص لعمل وجبة بسيطة من الطعام تسد الرمق على الأقل، وهي فرصة لقضاء بعض الوقت بمقهى القرية والتعارف على بعض روادها من پيشمرگة الأحزاب الأخرى، كالشيوعي والاشتراكي والاتحاد الوطني، وهو أمر كان يبدو غريبًا لمن يراني وأنا أحادثهم، لأنه على ما كان يبدو أنه تصرف غير مسبوق، وهو أمر لم يرق لمسؤولي قادر قادر الذي وصلته أخباري ونصحني بالكف عن تلك العلاقات خشية من غدرهم لي!... وهي حجة لم تكن مقنعة لي، وإن كنت أعرف السبب الحقيقي وأتجاهله متعمدًا، فهو كان يخشى من أن يكسبني بعض الذين كنت ألتقيهم من پيشمرگة الأحزاب الأخرى لأنتقل وأنضم إلى تشكيلات أحزابهم، وهو مفهوم كانت تمارسه كل الأحزاب على أفرادها بهذا الخصوص، وأعتقد أنهم كانوا يفضلوا الذي يتركهم ويرجع لبيته أو يسلم نفسه للسلطة على أن ينتقل ليكون عنصرًا مقاتلاً بحزب كوردي آخر على افتراض أنه سيكون مضطرًا لقتالهم مستقبلاً إذا ما نشبت أي مشكلة بينهم وبين ذلك الحزب، وعليه فإنني طمأنته قائلاً: إنني في اليوم الذي ستتكون عندي القناعة بترك حزبكم وهذا ما لا أرجوه،

فاعلم يا رفيقي العزيز أنني حينها سأرجع لبيتي لأنه لا جدوى من الانتقال لحزب آخر.

إن موضوع التنقل من حزب لآخر كان موجودًا على أرض الواقع من قبل الكثير من پيشمرگة الأحزاب، وبحسب ما ترتأيه مصالحهم الخاصة طبعًا، وليس من أجل تقاطع بالأهداف السياسية والارتقاء بما يخدم كوردستان وأهلها، باعتباره هو أفضل من ذلك الحزب الذي تركه، ومثال ذلك فلقد ترك مجموعتنا بناوچة ماوت بعض الأفراد والتحقوا بمجاميع من حزب الاتحاد الوطني وهم بكامل سلاحهم وعتادهم، وكذلك التجأت إلينا مجاميع من الحزب الإسلامي لتحتمي بمجموعتنا على أثر الهجوم المباغت من قبل مجاميع الاتحاد الوطني على كل فصائل حزبهم بكافة مناطق كوردستان، لأنه كان حزب موالي لإيران مائة بالمائة..

وحزب الاتحاد الوطني الكوردستاني هذا وبالرغم من علاقتي الوطيدة ببعض أفراده إلا أنني قد تعرضت لبعض المضايقات من قبل قلة من أفراده أثناء تواجدي وحدي بعيد عن مجموعتي، وحدث ذلك عندما نزلت لقرية بيانة بإحدى المرات وكنت بصحبة اثنين من رفاقي وتصادف أن التقينا بالبعض منهم على الطريق وهم سائرون بسياراتهم البيك أب التي دائمًا ما كانوا يستولون عليها أو يسرقونها من مدينة السليمانية، فتوقفوا بجانبنا وسألونا باستهجان وسخرية: هل تبيعون أسلحتكم لنا؟ من أجل ماذا تحملون هذا السلاح؟ وقبل أن نجيبهم بما يستحقونه من كلام هربوا مسرعين بسيارتهم وهم يضحكوا بشكل طفولي عالي، وعندها تيقنت مدى عمق المشكلة التي تعاني منها كوردستان من هؤلاء الجهلة، وخشيت على نفسي من نفسي عندما تجرني تلك التصرفات الصبيانية الطائشة عن الهدف السامي الذي من أجله أنا متواجد بتلك البقعة من كوردستان.

وهذا ما حدث بالفعل عندما كنت أمشي وحدي بإحدى الأيام وتوقفت إحدى سياراتهم، وتبسمت لهم حينها لاعتقادي أنهم قد يكونون أحد أصدقائي ويرغبوا بتوصيلي إلى القرية، ولكني تفاجأت عندما أمطروني ببعض الكلمات النابية ومنها: إنك تبدو كجحش برأس أحمر؟ وهذا معناه أن كل من يلبس غطاء رأس الجامانة حمراء اللون هو من الجحوش الخونة بنظرهم لأن بعض الجحوش هم فعلاً يفضلون اللون الأحمر لغطاء رأسهم، وعندها تملكني الغضب الشديد وتبخرت كل القيم العليا من عقلي، وبسرعة تراجعت بخطوتين عنهم ساحبًا أقسام بندقيتي لأرميهم كلهم بطلقات نيرانها، لكنهم هربوا مسرعين واكتفيت أنا بذلك ولم ألاحقهم بالضرب وهم يهربون، وحمدت الله الذي دفع بالشر عني ولم يحصل ما كنت أبغضه من قتال الأخوة، لقد فعلت ذلك لأني شعرت بأني عاجز عن إجابتهم بما يستحقون من توبيخ لوقع الصدمة على نفسي، فالكلام كان قاسيًا ومشيناً ولا يمكن السكوت عنه مطلقًا أيًا كان قائله، من ناحية أخرى فأنا لم أخبر رئيسي قادر قادر بذلك لكي لا تتسع المشكلة، واكتفيت بما فعلته بنفسي وإن كان تصرف متهور لم أكن أرضاه لنفسي ولكنها لحظة غضب كان الله قد كفاني شرها.

وعلى ذكر تلك الفترة التي كنت فيها إما ذاهبًا للقرية أو راجعًا منها إلى مقرنا صادفني شخص من الحزب الديمقراطي كان يتوسط مجموعة من البيشمركة الذين لم أكن أعرفهم تمامًا ولكنهم أشاروا لي قائلين لذلك الرجل الذي يتوسطهم: هذا هو ملازم سه رچل الذي حدثناك عنه، فسلم علي الرجل وكلمني باللغة العربية بعبارت ودية للغاية، معرفًا نفسه بأنه يدعى شريف كه چه ل وهو مسؤول ناوچة بنچوين، فبادلته التحية بنفس الود والاحترام ولم أزد عليه بالرغم من أنه كان أبرز قيادي في الحزب الديمقراطي، مع استغرابي من

معرفته المسبقة لي، فقال الرجل: لقد سمعت عنك واشتقت أن ألتقي بك وأتعرف عليك ونكون أصدقاء، فشكرته مبديًا رغبتي بقبول صداقته، وتوالت بعدها اللقاءات بيننا حتى أصبح أحدنا يكلم الآخر بدون تكلفة، وكان الرجل دائم السؤال عن أي شيء لا يعلمه بخصوص مجريات الأحداث السياسية بذلك الوقت إضافة للتاريخ الكوردي بشكله العام الذي أنا على إلمام متواضع بالكثير من مفاصله، وكان يستمع لي بآذان مصغية واهتمام بالغ، وكأن الرجل وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب يسعى لأن يثقف نفسه من خلالي، وقد تبين لي أنه جاهلاً بالسياسة أيضًا على الرغم من كونه قيادي بالحزب الديمقراطي، وكل الذي كان يجيده هو إمكانياته العسكرية بالقتال بشهادة القاصي والداني له بتلك المنطقة..

وعلى ذكر المواقف التي حصلت معي وأنا وحدي بعيدًا عن رفاقي بالمجموعة، فلقد صادف بإحدى المرات وكنا بجولة قريبة من قريتنا بيانة وكنت حينها مريضًا لأصابتي بنزلة برد شديدة، وطلبت حينها الإذن من رئيسي قادر قادر بالرجوع لمقرنا بقرية بيانة، فسمح لي وسألني إن كنت أحتاج لرفقة تدلني على الطريق، فشكرته وقلت له إنني على علم بالطريق، ومضيت وحدي أمشي بطريقي، وتوقفت على قمة إحدى التلال للراحة، وهناك وجدت مقبرة تواجدت فيها بعض النساء العجائز وهن يبكين موتاهن عند أحد القبور، فسلمت عليهن فرددن التحية بأحسن منها، ومدت إحداهن يدها بجيبها وأخرجت منه بعض الجوز لتعطيه لي ظنًا منها أنني قد أكون جائعًا، فأخذته منها وشكرتها، وعندها قالت لي: لا تتركونا هذه المرة كما فعلتم بسابق المرات، ومدت يدها إلى حزامي الكوردي البشتين وهزته بعنف كإشارة لطلب النخوة منا وقالت: إن شرف كوردستان معلق بين أيديكم فلا تفرطوا به ولا تخيبوا أملنا بهذه المرة؟ بإشارة للإخفاقات السابقة للثورة الكوردية...

عندها لم أستطع كبح مشاعري وسقطت دمعة من عيني لذلك الموقف المؤثر، لأني من خلال اطلاعي لمجريات الأمور على الساحة الكوردية قد علمت بيقين أن القوم منشغلين بمعادات بعضهم لبعض ولا أحد منهم يبالي بالشرف الكوردي الذي وصفته تلك المرأة الطيبة أنه معلقًا بين أيدينا كما كانت تعتقد، لقد كان موقفًا مؤثرًا ظل مطبوعًا بالذاكرة حتى يومنا هذا..

وهكذا فإن الإخفاقات بسبب ما كنت أطلع عليه من حقائق مضنية بكل يوم جديد، أخذت تتوالى لتحطم أركان تلك الصورة المثالية، التي رسمتها للثورة الكوردية بعقلي وضميري، بما اعتبرته نضالاً بطوليًا مشروعًا، وأيام خالدة كنت قد حسدت نفسي بمعايشتها، حتى جاءت القشة التي كسرت ظهر الحقيقة، عندما علمت بإحدى الأيام أنه قد تمَّ أسر ثمانية من الجنود العراقيين الذين كانوا قد سلموا أنفسهم طواعيًا على أثر غارة شنتها إحدى مجاميع الفرع الثالث لحزبنا الديمقراطي، ذهبت للقائهم بمكان حجزهم الذي كان قريبًا من مجموعتنا، ووجدتهم تحت الحراسة بسقيفة صيفية مكشوفة، فطلبت من حارسهم أن يأذن لي بمكالمتهم فوافق من فوره، فسألتهم: من أين أنتم؟ فقالوا والانكسار يخنق أنفاسهم: نحن من مدينة الحلة بمحافظة بابل، ونحن خريجي إعدادية الصناعة وتم تجنيدنا بموجب الخدمة العسكرية الإلزامية وإرسالنا إلى هذه المناطق للحراسة بإحدى الربايا العسكرية على الحدود الإيرانية لأننا لم ننتسب لحزب البعث وليس لنا من يتوسط لنا من أجل قضاء خدمتنا العسكرية بمحافظتنا بابل..

لقد كان أولئك الجنود البسطاء صادقين بكل كلمة قالوها، لأني أعلم من غيري بهذه الأمور باعتباري كنت على الدوام أحد ضحايا هذه الممارسات بالإقصاء لأبعد وحدة عسكرية نتيجة رفضي الانتماء لحزب البعث، فسألتهم عن الكيفية

التي تمَّ بها أسرهم؟ فقالوا: لقد سلمنا أنفسنا إلى قوات البيشمركة أثناء هجومها على الربية التي كنا فيها، ولم نستعمل أي سلاح من أجل مقاومتهم، وعندها سألت أحدهم عن اعتقاده بما سيكون مصيرهم؟ فقال: لا أحد منا يعلم بمصيره ولم يعدنا أحد من البيشمركة بأي وعود كإطلاق سراحنا مثلاً. وعندها ودعتهم وقد تملكني شعورًا عارمًا بالأسى لهؤلاء الشبان الذين صعبوا علي ولم يكن بيدي شيء أفعله من أجلهم لكي يعودوا بسلام إلى أبائهم وأمهاتهم، ناهيك عن شعوري بالعار لأننا هنا من أجل مقارعة الظالمين وليس المظلومين، فهؤلاء المساكين ليسوا الأعداء الحقيقيين لكوردستان، لأنهم كانوا من المغلوبين على أمرهم، وهنا قفز لذهني سؤال مفاده: ماذا سيكون موقفي إذا ما وجه لي الأمر بقتل هؤلاء المساكين؟ هل سيكون نوعًا من النضال مثلاً؟ وجاءني جواب ضميري سريعًا وقاطعًا أنني لن أكون قاتلاً مأجورًا لأني لم أتعلم مثل هذه الأفعال الوضيعة، وهذا لا يسقط حقي بأن أقاتل بكل ضراوة من أجل أن أحمي وأدافع عن أولئك الناس البسطاء من أهالي تلك المنطقة وذلك ما تطوعت من أجله بحقيقة أمري...

ولم يقتصر الأمر على اطلاعي لتلك الوقائع المخزية فقط، وإنما تلتها بعض المشاهدات لما كان يمارسه البعض من رفاقي في المجموعة أثناء تلك الجولات واستضافتنا من قبل أهالي القرى، فتصرفاتهم كانت مشينة ولا تليق بكل من يحمل صفة ثائر، لأنهم كانوا يتغامزون ويسترقون النظر إلى عائلة ذلك الرجل الذي فتح لنا بيته واستضافنا حبًا وكرامة بنا وبكوردستان، وهو أمر لم أتحمل السكوت عنه وأوصلت تفاصيله لمسؤول مجموعتنا قادر قادر من أجل إيقاف أولئك الصبية عند حدهم على الأقل، وقد وعدني الرجل أنه سيجري اللازم بحقهم، ولكني لم ألحظ أي تغيير بسلوكهم يؤشر بأنه قد اتخذ أي إجراء بحقهم بما فيه نصحهم على الأقل، والسبب باعتقادي أنه لم يكن متمكنًا من الضغط

عليهم باحتمال أنهم قد يتركوا مجموعتنا وحزبنا ويذهبوا لينضموا لحزب آخر أكثر رفاهية بنضاله على الأرض، إضافة لأنهم لن يضطروا بالتجوال مشيًا على الأقدام ويناموا في العراء بداخل أكياس بلاستيكية، وإنما سيتجولون بالسيارات ويتواجدوا بمقرات ثابتة لها سقف على الأقل يحميهم من البرد والمطر، خصوصًا ونحن كنا مقبلين على فصل الشتاء البارد، ناهيكم على أنني لم أرَ مسؤولنا قادر قادر يعطي فلسًا واحدًا لأي فرد في المجموعة وأنا منهم لكي يشتري لنفسه علبة دخان واحدة على الأقل، وبالتالي فإن أفراد البيشمركة بمجموعتنا كانوا يقدمون عملاً طوعيًا صعبًا بدون مقابل، وبالتالي لا أحد يستطيع السيطرة على تصرفاتهم.

من خلال كل ما تقدم من وقائع ومشاهدات كانت بالغة الأسى على نفسي وشديدة المرارة على ضميري الذي أصبح معذبًا؛ أصبحت متحيرًا من أمري، فحتى الأمس القريب كنت ممتنعًا على أن لا أكون شوكًا مؤذيًا بيد أحد، واليوم جئت من أجل أن أكون وردًا أفوح بعطري لكل من حولي، ووجدت نفسي قد أصبحت عن غير قصد إطلاقة طائشة من بندقية تمسكها أيادي غير أمينة، بل ومشكوك بإخلاصها وولائها لكوردستان كوطن قومي وللعراق كوطن جامع لكل القوميات بغض النظر عن أداء حكوماته المتعاقبة سلبًا أو إيجابًا..

ولهذا فقد كبرت مداركي وتفتح عقلي ووجداني خلال تلك الفترة القصيرة منذ أن فارقت العيش في قرية "گورگه يير" وحتى عملي الحالي كمقاتل بصفوف الحزب الديمقراطي الكوردستاني، خصوصًا بعد أن أدركت بأنه لا جدوى من تصحيح الحال حتى لو انتقلت للعمل بحزب آخر، ذلك لأن ما كان يدور من سياسات حزبية وحتى التصرفات الشخصية السلبية لكل المقاتلين هو أمر لم أستطع تفهمه أو معايشته ثم القبول به لأفعل مثله، والسبب هو أنني غريب

على تلك الثقافة التي كانت سائدة من خلال المنفعة الشخصية والانتهازية من أجل مكاسب آنية ضيقة، حتى مفهوم التضحية بالنفس كان يقدم قرباناً من أجل الفوز بتلك المكاسب الدنيئة، باستثناء القلة القليلة من المناضلين الحقيقيين الذين نذروا أرواحهم للعقيدة التي أمنوا بها نصرة للحق الكوردي.

من ناحية أخرى أصبح الرجوع إلى ما كنت عليه بحياتي السابقة كمواطن عادي أمرًا مستحيلاً لأني من وجهة نظر الدولة أصبحت خارجًا على القانون ومطلوبًا لعدالتهم المزيفة، وهذه التهمة وحدها كفيلة أن تجعل رقبتي تتدلى على مقاصل إعداماتهم الذائعة الصيت، ومن أجل تفريغ الشحنات العصبية الضاغطة على نفسي أطلقت العنان لقلمي أن يسطر مقالات تتكلم عن الصورة المثالية للنضال من أجل كوردستان، مستشهدًا بذلك بتاريخها العريق في الثورة على كل الطغاة وكيف كان البيشمركة قديمًا تضرب به الأمثال بصموده وتضحيته وصبره على الصعاب، وكان عنوان أحد أهم مقالآتي التي كتبتها هو: كوردستان عروس مهرها غالي يدفع بالدم، وكنت أسلم تلك المقالات أول بأول لمسؤولي قادر قادر الذي أظهر تعاطفه وما كتبت وبنفس الوقت شجعني لأن أكتب المزيد من أجل أن يرسلها بدوره لتنشر بجريدة الحزب على حد قوله تحت اسم (سه رچل ناوره سي) سرچل نورسي...

واستمررت بالكتابة على نفس وتيرة مشاعري الصادقة وكان إلهامي مُستمد من طبيعة كوردستان الجميلة، وطيبة أهلها البسطاء من الذين التقيت بهم وشاركتهم بزادهم وملحهم، ولم أكن أعلم إن كانت تلك المقالات ترسل حقًا من أجل نشرها أم أنها تهمل لعدم وجود جريدة لحزبهم بالأصل؟ سؤال لم أعرف له إجابة حتى الآن، ولكني لم أقرأ أو أطلع على أية منشورات كانت توزع علينا كمقاتلين بيشمركة في الحزب الديمقراطي آنذاك، وفي تلك الأيام التي أصبحت ثقيلة على نفسي جراء ما أسلفت ذكره بشرح وافي من وجودي ضمن صفوف

الحزب الديمقراطي، توقفت المجموعة عن القيام بجولاتها بين قرى تلك المنطقة وتوجهت للمشاركة بالقتال الذي كان دائرًا بين الجيش الإيراني والجيش العراقي الذي كان مرابضًا على الحدود العراقية من أجل توجيه ضربة تطعن به الجيش العراقي من خلف ظهره، وعندها التمست العذر من أجل ألا أشارك بتلك المهمة التي تخلوا من شرف القتال برجولة، وبقيت مع نفر من زملائي بمقرنا الصيفي عند المرتفعات القريبة من قرية بيانة، وعند رجوعهم انتابني حزن شديد لأني علمت أنهم قد أسندوا الجيش الإيراني من خلال ضرب الجيش العراقي بالهاونات وقذائف (الأر بي جي سفن)، لإيماني بأن العدو الحقيقي لا يتواجد هناك وإنما هو موجود بداخل مدينة السليمانية، وهو يدير أجهزته القمعية المسماة بقوات الطورائ وقوات الأمن الخاص وغيرها من المسميات التي ارتبط اسمها وعنوانها بإبادة وإرهاب الشعب الكوردي، لا أن نسند الجيش الإيراني الذي هو بالتأكيد ليس صديقًا للثورة الكوردية ولا لشعبنا الكوردي سواء بكوردستان إيران أو بالعراق..

وعليه فإن تصرف حزبنا الديمقراطي الكوردستاني حينها على ذلك النحو جعلني أشك بمصداقيته كحزب قومي، لأن الوقائع على الأرض كانت تُشير بكل وضوح لا لبس فيه أننا كنا بحقيقة أمرنا طلائع متقدمة للجيش الإيراني في العراق، وأولئك الجنود البسطاء الذين وقعوا بقبضتنا قبل فترة تمَّ تسليمهم بفترة لاحقة لإيران باعتبارهم أسرى حرب، وتلك علامة أخرى جعلتني أراجع نفسي كثيرًا من غير أن أجد لي مخرجًا من ذلك الفخ الذي أوقعني به قريبي الانتهازي الذي وجد مصلحته الرخيصة مع الحزب الديمقراطي من خلال دفعي بمحرقتهم، وكم تمنيت حينها أن أموت لكي تبقى يداي نظيفة ولا تتلطخ بالعار الذي لحق بي ككوردي كان هدفه مد يد العون لشعبه، وأصبح رغمًا عنه بندقية مأجورة للفرس، ولكني وللأسف وجدت أن الطريق الذي سلكته لم يعد بإمكاني

التراجع أو التخلي عنه وبنفس الوقت هو سلوك يتنافى مع ما تربيت عليه منذ طفولتي، لقيم عليا استمديتها من تاريخ عائلتي، باعتبار أن ذلك الطريق لم يكن مشرفًا لي مهما كانت الدوافع والأعذار..

وأثناء تلك الفترة؛ وحينها كنا مقبلين على نهاية الشهر التاسع من عام ١٩٨٢، وأوشك عيد الأضحى على القدوم، وجاء بعض الأهالي لزيارة أولادهم وذويهم من البيشمركة، وانتشروا بتلك القرى التي لهم فيها بعض المعارف والأقارب والأصدقاء، وجرائه ذهب الكثير من رفاقي بإجازات لكي يلتقوا بأهلهم، وبقي في المقر من كان على شاكلتي، مقطوعًا من الأهل والأقارب الذين قد يزوره أو يتفقده أحدهم بتلك المناسبة، ولأن البقاء وحيدًا بمقر المجموعة يشعرني بأنني بغربتي عن أهلي، فقد طلبت الإذن لإجازة أذهب بها لقرية "گورگه بير" التي اعتبرتها مسكني ومحل إقامتي السابقة، من أجل الاتصال بأقاربي في السليمانية عن طريق رسالة قد أجد هناك من ينقلها إليهم لاستفسر فيها عن أحوال أهلي ببغداد، وبنفس الوقت أنقل لهم أخباري.

وقد كنت أعلم أن المسيرة لقرية گورگه بير كانت تتطلب مني المشي بشكل متواصل لنهار كامل، يبدأ منذ شروق الشمس وحتى مغيبها، من غير التوقف بأي قرية تصادفني على الطريق الذي كنت أعلمه جيدًا من خلال جولاتنا السابقة بتلك المنطقة، وعليه فلقد غادرت المجموعة بعد حصولي على الإذن بالمغادرة بفجر أول يوم لعيد الأضحى متوجهًا إلى قريتي التي اعتبرتها مكان مولدي السياسي كمقاتل كوردي، وقد نصحني بعض من رفاقي قبيل مغادرتي لهم بأن أغير غطاء الرأس الذي كنت أعتمره، لأنه كان باللون الأحمر الذي يرمز لمن هو من منطقة باهدنان ولعشيرة البارزانيين على وجه التحديد، لأبدله بواحد آخر خشية من تعرض أفراد پيشمركة الاتحاد الوطني لي أثناء سيري على ذلك الطريق وأنا وحدي.. ولكني امتنعت أن أفعل كما نصحوني

وغادرتهم مرتديًا نفس الزي الذي تعودت عليه منذ انضمامي لهم، على الرغم من امتلاكي لواحد آخر مغاير باللون ومتماشي مع الزي السائد بتلك المنطقة.

وهكذا توكلت على الله ونزلت من مقرنا بقرية بيانة قبل شروق الشمس، ومنها انطلقت بمسيري مع بدايات خيوط الفجر، واضعًا ببالي خطة تقتضي مني أن أتجه شمالاً حتى قرية ماما خلان التي أتوقع أن أصلها عند منتصف الظهيرة، ومنها كان يتوجب علي أن أتجه غربًا تجاه النهر الذي يقع أسفل جبل كاتو گوره، الذي باجتيازه أكون قد أصبحت قريبًا من قريتي بمسافة ثلاث ساعات من المشي المتواصل، وكانت استراجيتي تقتضي مني أن أتحاشى محادثة كل من سيصادفني على الطريق، وذلك تلافيًا لأي جدل لما كان سائدًا بتلك الفترة بين مجموعات البيشمرگة من كل الأحزاب..

طبقت خطتي بحذافيرها، فتارة كنت أهرول وتارة أخرى كنت أمشي بخطوات سريعة، وعندما يصيبني الإرهاق كنت أستريح من خلال المشي بخطوات اعتيادية، حتى وصلت إلى قرية ماما خلان عند الظهر كما توقعت، ومنها اتجهت غربًا نحو النهر، فوصلته بظرف ساعتين من الزمن، ومن حسن حظي وجدت منسوب مياهه قد انخفض فعبرته من دون أية واسطة للنقل، وبدأت بعدها بصعود جبل "كاتو گوره" الذي كان يفصلني عن قرية "گورگه ييِر"، وأثنائها بدأت قواي تخور، وكان لابد لي من الوصول قبيل غروب الشمس لعدم وجود أية قرية قد ألجأ إليها بتلك النواحي إذا ما حل الظلام، فاستجمعت قواي من أجل المضي بسيري حتى وصلت قرية "گورگه ييِر" بوقت غروب الشمس، متناسيًا معاناتي بالجوع والعطش، لأني كنت أتسابق مع الزمن من ناحية، ولأني جعلت توقيت وصولي هو الأفضلية على المأكل والمشرب من ناحية أخرى.

فور وصولي توجهت لبيت صديقي محمد پيشمرگة، وهو كما أسلفت سابقًا كان عنصر سياسي مثقف من حزب الاتحاد الوطني الكوردستاني، فوجدته بجامع القرية، تعانقنا بحرارة وعاتبني بشدة للطريقة التي انفصلت بها عن صهره الذي هو قريبي الانتهازي من أجل الانضمام للحزب الديمقراطي، فأخبرته أن هذا الكلام غير صحيح وأن قريبي قد كذب عليه فأنا لم أخالفه أو أخرج عن رأيه، وهو الذي أخذني بيده إليهم، لأني كنت قد أوكلت أمري له باختيار من هو الأصلح من الأحزاب للانضمام إلى صفوفه، باعتباره ابن عمي وأدرى مني بتلك التفاصيل، ولكني عرفت بعد فوات الأوان أنه لم يكن أهل للثقة وكان انتهازي بشكل مخجل جدًا، ثم ختمت قولي إنني بكل الأحوال كان يتوجب علي الانضمام لأحد الأحزاب وها أنا الآن بأحدها..

تعجب الرجل لأن قريبي على ما كان يبدو قد أخبره بعد رحيلي بقصة ملفقة ومغايرة لما حدث، خشية من عتاب صديقي كاك محمد له بإرسالي إلى جهة مجهولة وبعيدة، عندها أخبرني عن اعتقاده بالسبب الذي دفع بقريبي لأن يختار لي الحزب الديمقراطي دون عن غيره من الأحزاب، وقد أصاب الرجل لأنه قال لي نفس ما كنت أعتقده من أسباب جعلت قريبي هذا يرمي بي بعيدًا، ذلك لأنه كان يعلم بأن مقرات الحزب الديمقراطي هي بعيدة جدًا وفي مناطق لا يعرفه فيها أحد كما هو الحال بقريتنا هذه، باعتبار أن كل ساكنيها يعرفوا بصلة قرابتي وإياه، وهو أمر كان سيشكل مصدر قلق له، الأمر الذي دعاه لأن يحتال علي بذلك الأسلوب الرخيص وهو أمر لم يكن يخطر إلا على بال الشياطين وأعوانهم..

هنا توضحت الصورة أكثر وجاءت الإجابة عن الغاية من تصرفات قريبي المريبة معي، لأنه عمل على مدى فترة إقامتي معه بإبعادي عن لقاء أي

شخص كان بإمكانه تجنيدي بصفوف الثورة، ومنهم صديقي محمد پيشمرگة، وهو تحسب لا يخطر على بال أحد. وعند ذاك فاتحت صديقي "كاك محمد" عن الورطة والمأزق الذي أنا فيه بعد أن اتضح أن الحزب الديمقراطي هو أداة تعمل لصالح إيران، وهو أمر من وجهة نظري لا يخدم القضية الكوردية وكوردستان، فأجابني أن الكل يعلم بهذا فما هو الجديد بالموضوع؟ وختم قوله بتلك العبارة من غير أن يساعدني بالحل كأن مثلاً يعرض علي مغادرتهم والانتقال لحزبهم الاتحاد الوطني للخروج من ذلك المأزق الذي أوقعني به صهره المحترم الذي أتضح أنه كذاب بارع أيضًا...

حينها صعب علي أن أفاتحه بتلك الرغبة، وإن كانت واضحة لا تحتاج مني أن أنطقها، ولو فعلتها لكانت نوع من الاستجداء الذي أرفض أن أطلبه حتى لو كان من أخي ابن أمي وأبي وهو سلوك لم أمارسه طيلة حياتي. وبعد أن جلسنا في بيته للراحة أخبرته عن رغبتي بأن أبعث برسالة إلى أقاربي في السليمانية لأخبرهم بأحوالي ولأستفسر عن أخبار أهلي في بغداد، فأشار علي بأن أذهب إلى بيت جيراننا السابق كاك محمد الچته لأنه ينوي الذهاب لمدينة السليمانية بغرض التسوق، وهي مناسبة لزيارة ابنه كاك نامق البيشمرگة القيادي بحزب الاتحاد الوطني الذي نحر عجلاً بمناسبة عيد الأضحى، ثم شدد علي الذهاب لهم من فوري ليقينه أنني لم أتناول شيئًا من الطعام منذ الصباح، فقلت له بل منذ البارحة مساءً، فضحكنا وافترقنا على أن نلتقي ليلاً بجامع القرية.

بعدها اتجهت فورًا إلى بيت كاك نامق محمد الجتة، وهو من القادة الميدانيين لحزب الاتحاد الوطني، فسلمت عليهم جميعًا وجلست واضعًا بندقيتي على الأرض من خلفي، وهو تصرف يعني للآخرين أنه شعوري بالأمان والاطمئنان بذلك المكان، وجلس بجانبي جاري القديم كاك نامق وبادلني الأحاديث الودية،

محترمًا انضمامي للحزب الديمقراطي، ثم استأذن منا ليجلب لي الطعام لأنهم كانوا قد تناولوا الطعام بوقت مبكر من ذهابي لهم.. وبعد ذهابه بقليل تكلم معي أحد الجالسين من ضيوفه معرفًا نفسه بتباهي واضح أنه يدعى مام ريشه، فقلت أهلاً وسهلاً ولم يكن اسمه يعني شيئًا مميزًا لدي كما كان هو يعتقد، ثم وبإشارة استهزاء بيديه لصورة الملا مصطفى البارزاني التي كنا نعلقها بالحزب الديمقراطي على صدورنا كتقليد متبع آنذاك قائلاً: من هذا الذي تحمل صورته؟ فقلت ببرود إنك تعرفه فلماذا هذا السؤال؟ فقال: أظنه من ملالي أحد الجوامع، أليس كذلك؟.

هنا دخل علينا مضيفنا كاك نامق يحمل لي الطعام، وقد استمع لكل تلك المحادثة التي بالتأكيد لا أستطيع أن أسميها بالودية، وقال له بحزم لا يخلو من التأنيب: إن هذا الرجل بعيد عن ما نعانيه نحن من أمراض تحزبية، لأنه جاء من بغداد بقصد الالتحاق بالثورة الكوردية، ولم تكن لديه فكرة عن صراع الملايتي والجلالي كما هو متعارف عنه بأوساط السياسة الكوردية؟ فهو پيشمرگة لكوردستان وليس لحزب بعينه، ولو أنه انضم لحزبنا لكان بالتأكيد سيسمع لنفس الانتقادات اللاذعة التي قلتها له قبل قليل من الأحزاب الأخرى.

لقد كان كلام كاك نامق صحيحًا بوصفه لي ويكاد ينطبق علي بالكامل، باستثناء الفقرة الأخيرة من كلامه، لأن التعليقات البذيئة والاستهزاء بالآخر بحسب علمي كانت تصدر حصرًا من قبل پيشمرگة الاتحاد الوطني، الذين يستخفون بكل پيشمرگة لا ينتمي لحزبهم، وهي صفة فيها الكثير من الغرور ولم يكن لي علم بأسبابها.

عندئذ دخل علينا أحد الضيوف وهو من فقراء القرية، فنهض كاك نامق مرحبًا به وغادرنا ليجلب له الطعام، وعندها خاطبني المدعو "مام ريشة" مبديًا أسفه

لعدم علمه أني من بغداد، وأنه كان يتصور أنني أحد أفراد عشيرة البارزانيين، وكان عذرًا أقبح من ذنب لأن البارزاني هو كوردي منا وليس من أعدائنا. وبعد أن انتهيت من تناولي للطعام الذي قدمه لي كاك نامق سألته عن رغبتي بالحديث لوالده، فأخبرني أنه ذهب لجامع القرية من أجل صلاة العشاء، فاستأذنته بالانصراف ومضيت إلى حال سبيلي بعد أن ودعني بحرارة شديدة، وكانت هي المرة الأخيرة التي التقيته بها.

وفي جامع القرية التقيت بوالده كاك محمد الچته وأخبرته عن نيتي بكتابة رسالة إلى أقاربي في السليمانية، وطلبت منه مترجيًا أن يوصلها إليهم ويعود لي بالجواب إن هم رغبوا بالإجابة، فأظهر الرجل مشكورًا استعداده بتوصيلها، واتفقنا على اللقاء في الصباح لتزويده بالرسالة، بعدها التقيت مجددًا بصديقي كاك محمد پيشمرگة وسألته أن يزودني ببعض الأغطية للمبيت في جامع القرية حيث أن الطقس قد تغير وأصبح باردًا أثناء الليل، فأخذني الرجل إلى بيته وأعطاني ما أحتاجه للمبيت بالجامع.

وأمضيت ليلتي بجامع القرية ولم أخلد للنوم إلى أن أكملت كتابة الرسالة على ضوء الفانوس، وقد وجهت خطابي بتلك الرسالة إلى عمي العزيز كاك نجم الدين رحمه الله وقد أخبرته بكل أحوالي، كما طلبت منه تزويدي ببعض أسماء من يعرف من عائلتنا بقرية كاني بردينيا، بغرض التعرف عليهم إذا ما صادف وقمنا بجولة بتلك النواحي التي هي فيها، وقرية كاني بردينيا كانت أراضيها بفترة الملكية وما قبلها بزمن العثمانيين مملوكة لجدي الثاني الحاج حسن أفندي المتوفي بعام ١٩٢١، وبعدها تصرف الورثة من أبنائه وبناته بها وبغيرها من الأملاك بداخل مدينة السليمانية ومنهم جدي الحاج علي الذي ورث

تلك الأملاك ولم يورث قرشًا واحدًا لوالدي الذي عاش ومات عصاميًا، اعتمد على نفسه منذ فترة صباه وحتى وفاته..

وفي الصباح الباكر جاء كاك محمد الچته وهو رجل طيب وكبير في السن للصلاة بجامع القرية، فسلمته الرسالة بسرية تامة، وعندما أردت تزويده بالعنوان اتضح أنه يعرفه، لأن قريبي لطالما كان يتفاخر أن بيته على الشارع العام بحي (٤٥) العقاري، وله دكان هناك يقع على الجانب المقابل للشركة العامة للسجائر، ومجاورًا لفندق السلام السياحي، وسألته همسًا عن موعد عزمه الذهاب لمدينة السليمانية؟ فأخبرني أنه لا يعلم بالضبط، والأمر متروك للصدفة التي ستتوفر فيها إحدى السيارات المتجهة لمدينة السليمانية من تلك التي كانت تنقل الناس بالأجرة..

افترقت عن ذلك الرجل الطيب ووجدت نفسي أتكلم مع روحي لأسألها هل كنت خالص النية بطلبي من أقاربي عن أسماء من يعرف عائلتنا في قرية كاني بردينيا، أم أنني كنت أبغي إجبارهم على كتابة إجابة لرسالتي لهم لكي أعرف مدى اهتمامهم بي ورعايتهم لي، فكان الجواب أن الغاية هي أن تصلني رسالة منهم كتلك التي يستلمها رفاقي في الناوچة من أهلهم وذويهم في السليمانية، لكي أريهم إياها متباهيًا أن هذه الرسالة من أولاد عمومتي في السليمانية، وكأني بذلك كنت أريد التأكيد أن لي أهل مثلكم في السليمانية...

قضيت وقتي بذلك النهار ما بين لقائي لصديقي محمد پيشمرگه ومحادثته بالكثير من الأمور السياسية، وقد سألته عن توقعاته حول ما هو قادم بالنسبة لمصير الحرب العراقية الإيرانية، وانعكاسات تأثيرها على كوردستان، وكانت له نظرة صائبة بتلك المواضيع.. من ناحية أخرى قضيت القسم الآخر من الوقت أتمشى بتلك المنطقة لأستحضر ذكرياتي الجميلة فيها حتى حل المساء، وعندها ذهبت لجامع القرية، وهناك كان صديقي محمد پيشمرگة ينتظرني لأن طعام العشاء

كان قد جُهز في بيته، فشكرته ومضينا سويًا لبيته، وبعد العشاء رجعت لجامع القرية، ووجدت كاك محمد الچته يُصلي فرض العشاء، وتصورته لم يذهب للسليمانية لعدم وجود واسطة نقل تنقله إليها، لكنه فاجأني عندما أخبرني أنه قد ذهب مبكرًا ورجع قبل قليل، وبلهفة سألته:

– هل ذهبت لبيت أقاربي؟ هل وجدت عنوانهم؟

فقال بأسف واضح:

– إن العنوان كان معلومًا ولكن المخزي أن قريبك هذا الذي كان يسكن بجوار بيتنا هنا في القرية، قد بدا لي وكأنه شخص آخر لا أعرفه.

فسألته:

– كيف؟

– ببداية الأمر كلمني بجفاء وبعد أن تأكدت أننا وحدنا قلت له إنني أحمل لكم رسالة من قريبكم البيشمرگة بالحزب الديمقراطي، وبدل من أن يسألني عن أحوالك قال لي من أعطاك عنواننا؟ فقلت له هل نسيت أنك الذي أعطاني العنوان مع تكرار دعوتك لي ببيتك، وأنا جئت بغاية إنسانية من أجل قريبكم الذي يستحق منا الكثير من الاحترام والتقدير لموقفه البطولي، وليس لكي تضيفني.. فقال لي: كيف عاد من مكانه البعيد على الحدود؟ وعندها أخبرته بما أعرفه، أخذني لباب بيت مجاور لدكانه ودخلنا لبيت أهله، وهناك في الحديقة أجلسني أنتظر هناك من غير أن يضيفني ولا بقدح ماء، وعاد ومعه هذه القصاصة من الورق لأعطيها لك، وقال مشددًا نرجوك ألا تأتي إلينا مرة أخرى، لأن هيئتك واضحة للعيان أنك من أهل القرى، ونحن لا نريد أن تقع علينا الشبهات بسبب هذه الزيارات. وختم ذلك الرجل الطيب قوله إنه يعتقد أن سوء استقبال قريبي له بسبب كونه فقير الحال وهم أغنياء وبالتالي ليس هناك شيء يجمع بينهم..

كان وقع كلام ذلك الرجل الكهل الطيب على نفسي بالغًا في الأسى والحزن الشديد، وذلك خجلاً منه وهو الذي تحمل عناء الرحلة وتكاليفها من أجلي، لأنه أحس بفطرته بما كنت أعاني من ضغوط نفسية، فتطوع مشكورًا على أمل أنه سيزيح عني بعض الغم... ولم أجد وسيلة أشكره بها سوى أن أقبله من جبينه وأمسك بيده الكريمة لأقبلها أيضًا متأسفًا ومعتذرًا لما لحق به من سوء سببه له أقاربي، وهو أمر لم أكن أتصور أو أتوقع حدوثه على ذلك النحو المشين، فقال الرجل: أنا أيضًا لم أكن أتصور أن ذلك الرجل الوديع الودود الذي كان يسكن معنا هنا تصدر منه تصرفات بمثل تلك القسوة والجفاء، فقلت له هؤلاء هم الانتهازيين كالحرباء يتلونون بحسب بمصالحهم، والحمد لله أننا لم ولن نكون مثلهم... بعدها أعطاني الرجل قصاصة الورق التي تزود بها من أقاربي وذهب لحال سبيله، فوجدت فيها أسماء لاثنين من الرجال فقط من غير سلام أو كلام يقولونه لي جوابًا لما كتبت لهم.

في الصباح التقيت بصديقي محمد پيشمرگة وأخبرته بما حصل من عديله أو صهره أو ابن عمي في السليمانية، فقال لقد كنت متوقعًا حدوث ذلك ولكني لم أشأ إخبارك ومنعك من كتابة الرسالة، لاحتمال أني قد أكون مخطئًا بتقديراتي، فالذي نفاك بعيدًا على الحدود عمل ذلك من أجل ألا تتمكن مستقبلاً من الاتصال به، وليس من أجل أن يفرش الأرض بالورود لكل من تبعثه له...

عندئذٍ لم يبقَ لي سبب واحد يبقيني بقرية "گورگه يير" ونحن بذلك الصباح الباكر، وهو الوقت المناسب للبدء برحلة العودة لمقري، بعد أن قضيت ليلتين بعيدًا عن رفاقي في المجموعة، فودعت كاك محمد پيشمرگة على أمل اللقاء به مستقبلاً بظروف أفضل، ثم تعانقنا وودع أحدنا الآخر، مشيت بذلك الطريق الذي سيرجعني لمقر مجموعتي ناوچة ماوت بخطى متثاقلة والحسرة تعتصر قلبي

وأنا مكسور الخاطر، وسؤال سخيف واحد كان يتبادر لذهني باستهجان: ماذا سيكون تعليق زملائي عندما أريهم محتوى قصاصة الرسالة التي بعث بها أقاربي لي؟.

لدى وصولي لمقرنا الصيفي بمساء ذلك اليوم؛ وجدت رفاقي يتهيأون للانتقال إلى إحدى القرى القريبة للمكوث بجامعها، وجعله مقرًا حصريًا لمجموعة ناوچة ماوت، وذلك لحلول فصل الشتاء الذي قدم علينا مبكرًا بتلك السنة من خلال موجات البرد وهطول الأمطار بين الحين والآخر، وكان التاريخ حينها هو الأيام الأولى من الشهر العاشر لعام ١٩٨٢..

استقرينا بمقرنا الجديد وهناك أصبحت وتيرة الحياة اليومية مملة بسبب الركود الذي خيم علينا لانعدام الحركة، فلا ذهاب للتسوق ولا جلوس بمقهى ولا حتى مضايقات من هذا أو ذاك، لأننا كنا نجلس في النهار ونحرس في الليل، وأنا بطبعي لم أكن ميالاً للأحاديث غير الجدية، وكان بودي لو أنني وجدت شخصًا واحدًا من المجموعة مثقفًا ليكلمني عن السياسة أو التاريخ أو حتى الديمقراطية التي هي عنوان لحزبنا، أو لنسأل أنفسنا على أقل تقدير عن السبب الذي كنا متواجدين من أجله هنا بذلك المكان، لكن للأسف لم يكن هناك شخص واحد مثقف بدرجة حتى دون الوسط، لأنهم كانوا من بسطاء الناس، الأمر الذي اضطرني للانعزال والتفرغ للكتابة بمشاعر ومعنويات محبطة.

استمر ذلك الحال فترة حتى فاجأني مسؤولنا قادر قادر بأحد الأيام وقال لي: لقد صدر أمر نقلك إلى المكتب السياسي في القيادة العامة للحزب، فسألته عن مكان تواجد عملي الجديد؟ فقال: في (السركردايتي) وهو المقر الرئيسي لقيادة الحزب، حيث توجد الإذاعة التي تبث باللغة الكوردية والعربية ولغات أخرى، ومكانه يعتبر من أسرار الحزب وستعلمه بحينه، ويجب أن تعلم بأنني من قام

بترشيحك لهذه المهمة باعتبارك مؤهلاً للعمل هناك، وبمكانك الجديد سيكون بإمكانك الدفاع عن القضية الكوردية بقلمك وصوتك، وذلك برأيي أهم من حملك للبندقية وأنت معنا هنا، وأضاف قائلاً:المكان الذي ستذهب إليه لم يتسن للكثير من رفاقك الذين قضوا نصف أعمارهم في الثورة من الذهاب إليه.

بعد تلك المقدمة زودني بكتاب النقل الذي كتبه أمامي ثم أغلقه، وطلب مني تسليم بندقيتي ومخازن عتادها الاحتياطية وقال لي: غدًا ستكون هناك مجموعة من رفاق حزبنا بتجمع عند جامع قرية بيانة، ويجب أن تنضم إليهم لأنهم سيغادرون بتمام الساعة الثانية عشر ظهرًا، وهم من سيوصلوك لإحدى مقرات حزبنا التي ستتدبر ذهابك للمكتب السياسي بالمقر الرئيسي للحزب بعد أن تسلمهم كتابي هذا.

قضيت أخر يوم كنت فيه مع مجموعتي ورفاقي الذين كانت لي بجميعهم علاقة طيبة واحترام عالي على مدى فترة تواجدي معهم، وكنت أتفكر بتلك النقلة السريعة للأحداث، ولم يتملكني أي شعور بالفرحة أو بالبهجة، وإنما أحسست بانقباض بصدري لأني سأذهب للمجهول، والحقيقة أنني أصبحت أخشى ما تحمله لي تلك المفاجآت العجيبة والغريبة، وعلى أية حال فإني قبلت بتلك الانتقالة علها تخرجني من حالة السكون الكئيبة التي كنا فيها، ناهيك عن الجمود الفكري الذي بدا وكأنه نهاية الطريق الذي سلكته باختياري، على أمل أن تكون تلك النقلة مخرجًا لي عندما ألتقي بالقادة السياسيين للحزب، ومن خلالهم سيتسنى لي أن أجد الكثير من الأجوبة لأسئلتي التي لم أجد أجوبة لها عن سبب تلك الفعاليات العسكرية لحزبنا الديمقراطي من تلك المساندة للجيش الإيراني، على أمل أن أجد عندهم التفسير المقنع بأنها حالة مؤقتة على أقل تقدير، كأن تكون تلك الحالة ليست الهدف من حملنا للسلاح، وأننا مناضلون ولسنا بندقية للإيجار كما كان شائعًا عنا..

في عصر ذلك اليوم أتممت جميع استعداداتي من أجل الانطلاق غدًا برحلتي المزعومة التي ستفتح أفاق أخرى أمامي، وقد اضطررت للاستحمام بالهواء الطلق بالرغم من برودة الطقس، لأني لا أعلم متى سيتسنى لي أن أستحم مرة أخرى، وكذلك عملت على غسل جميع ملابسي وتنشيفها بجامع القرية، الأمر الذي أدى لأصابتي بالأنفلونزا...

في الصباح جمعت حاجياتي بجعبتي التي حملتها على ظهري متسلحًا بنسخًا من مقالآتي التي كتبتها خلال الفترة الماضية، وودعت كل رفاقي في المجموعة ومضيت إلى مكان التجمع المحدد الذي سأبدأ رحلتي منه بصحبة بعض الأفراد من البيشمركة، معتقدًا أنهم سوف يقودوني إلى مقر القيادة الذي أجهل مكانه، وافترضت أنه سيكون بمكان ما بكوردستان، وعند وصولي لجامع قرية بيانة وجدت حشدًا من الرفاق الذين كنت أعرف البعض منهم، فسألتهم عن المجموعة التي ستغادر فأرشدوني إليهم، انضممت لهم وغادرنا بدون مناقشة لأية تفاصيل تتعلق بتلك الرحلة التي قادتني إلى المزيد والمزيد من العذابات، وبنفس الوقت علمتني من الدروس بفترة قصيرة ما لم أتعلمه على مدى عمري الماضي آنذاك.